الفصل السابع

عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان دون الفتوحات

اجتمعت الأمة بعد مقتل عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان وأصبح الخليفة الشرعي، وهو أول خليفة ينتزع الخلافة بقوة السيف والقتال، مما أثر على الفقه السياسي بعد ذلك أكبر الأثر، فإذا كان معاوية قد أصبح خليفة بعد الصلح مع الحسن بن علي واجتماع الأمة عليه طواعية عام الجماعة، وإذا كان ابنه يزيد قد بويع من الأمصار في حياة أبيه ثم بعد وفاته، وإذا كان ابن الزبير قد بويع بعد وفاة يزيد وهو بمكة من عامة الأمصار عن رضا واختيار، فإن عبد الملك أول خليفة انتزع الخلافة انتزاعاً وبايعه كثير من الناس، بعد أن قتل عبد الله بن الزبير ليبدأ عصر الخليفة المتغلب وهو ما لم يكن للأمة به عهد من قبل، لقد أجمع الصحابة ﷺ على أن الإمامة إنما تكون بعقد البيعة بعد الشورى والرضا من الأمة، كما أجازوا الاستخلاف بشرط الشورى ورضا الأمة بمن اختاره الإمام، وعقد الأمة البيعة له بعد وفاة من اختاره دون إكراه، كما أجمعوا على أنه لا يسوغ فيها التوارث ولا الأخذ لها بالقوة والقهر، وأن ذلك من الظلم المحرم شرعاً[1]. قال ابن حزم: لا خلاف بين أحد من أهل الإسلام أنه لا يجوز التوارث فيها[2]، غير أن الأمر الواقع بدأ يفرض نفسه، وصار بعض الفقهاء - بحكم الضرورة - يتأولون النصوص لإضفاء الشرعية على توريثها وأخذها بالقوة لتصبح هاتان الصورتان بعد مرور الزمن هما الأصل الذي يمارس على أرض الواقع، وما عداهما نظريات لا حظ لها من التطبيق العملي[3]، إلا في حالات نادرة.

وأصبحت سنة هرقل وقيصر بديلاً عن سنة أبي بكر وعمر؟[4].

وقد أجاز كثير من الفقهاء طريق الاستيلاء بالقوة من باب الضرورة مع إجماعهم على حرمتها مراعاة لمصالح الأمة وحفاظاً على وحدتها وأصبح الواقع يفرض مفاهيمه على الفقه والفقهاء، وصارت الضرورة والمصلحة العامة تقتضي تسويغ مثل هذه الطرق.

إن الاستبداد والاستيلاء على حق الأمة بالقوة - وإن كان يحقق مصلحة آنية - إلا أنه يفضي إلى ضعف الأمة مستقبلاً وتدمير قوتها وتمزيق وحدتها، كما هو شأن الاستبداد في

---

(1) الحرية أو الطوفان، ص: 119.
(2) الفصل (4/ 167).
(3) الحرية أو الطوفان، ص: 119.
(4) المصدر نفسه، ص: 119.

جميع الأعصار والأمصار وأن ما يخشى من افتراق المسلمين بالشورى خير من وحدتهم بالاستبداد على المدى البعيد[1]، وإن الاستمرارية في ممارسة الشورى مع ما يعتريها من عوائق ومصاعب تثري الأمة في الفقه السياسي وتقطع بها مسافات كبيرة في هذا المجال ولهذا تعثر الفقه السياسي في مسيرته التاريخية ولم ينطلق الانطلاقة المطلوبة منه بسبب النظام الوراثي والاستبدادي.

إن عبد الملك بن مروان شق طريقه نحو الملك بسفك الدماء وقتل الأبرياء والخروج على الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير، فلم يراعِ حرمته كصحابي جليل، ولم يلتمس عذراً لابن عمه عمرو بن الأشدق، ويحرص على الوفاء لعهده، ولم يحترم الزمالة والصداقة مع مصعب ابن الزبير، ، ولا ننكر بأن عبد الملك بن مروان كان من عقلاء الرجال ودهاتهم، ومن أكثرهم حزماً وشجاعة وإقداماً[2]، وقد أثبت عبد الملك كفاءة عالية في إدارة الدولة وسياستها وكان غير هياب يمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً، ولا يتردد عن قيادة المعارك بنفسه، ولقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة ويجمع شمل الأمة الإسلامية وأن يصفي خصومه الواحد بعد الآخر، بالصبر والجلد والمثابرة، وعمل على توطيد دعائم دولته ونجح في ذلك نجاحاً فائقاً، ولم تكن تأخذه هوادة أو رحمة بكل من يحاول أن يعكر صفو الدولة أو يخرج عليها، وقد استحق عبد الملك عن جدارة لقب المؤسس الثاني للدولة الأموية، بعد معاوية مؤسسها الأول[3]، وقد عمل على توطيد الأمن في البلاد وتفرغ للخوارج وقمع الثورات، ومن أشهر الحركات التي خرجت في عهده، حركة الأزارقة والصفرية وابن الأشعث واستطاع أن ينتصر عليها جميعاً، إن عبد الملك بن مروان أصبح أمير المؤمنين بعد مقتل ابن الزبير وبيعة المسلمين له ومذهب عامة أهل السنة والجماعة، إن الإمامة يصح أن تنعقد لمن غلب الناس، وقعد بالقوة في موضع الحكم[4]، إلا أنه يجب أن يفهم أن هذه حال ضرورة والضرورات تبيح المحظورات، فهذه حال إلجاء واضطرار كأكل الميتة ولحم الخنزير، وقبولها لأنها خير من الفوضى التي تعم الناس. وعلى هذا فإنه يجب ألا توطن الأمة نفسها على دوام هذا الوضع، بل يجب عليها أن تعمل على تغيير الإمامة الناقصة بإمامة كاملة مستوفاة الشروط المطلوبة في الإمام الحق بالوسائل التي لا يكون فيها فتنة بين الناس، ويجب السعي دائماً لأن يكون الإمام آتياً عن الطريق الصحيح وهو طريق أهل الحل والعقد، ومع إن إمامة المتغلب تنعقد نظراً إلى حال الضرورة كما قلنا، إلا أن الغالبية العظمى من علماء

(1) الحرية أو الطوفان، ص: 123.
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 249).
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي.
(4) الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص: 7، 8، رياسة الدولة، ص: 304.

المسلمين لم يجيزوا أن يكون القهر طريقاً لانعقاد إمامة الكافر للمسلمين[1]، وإذ حال القهر يمكن أن يتسامح فيها في بعض شروط الإمامة كالعلم أو العدالة أو البلوغ، إلا أن شرط الإسلام لا يمكن أبداً إسقاطه عن الإمام، وعلى هذا، فلو تغلب كافر على هذا المنصب فلا يجوز شرعاً - كما يرى ذلك الجمهور - السكوت على هذا الوضع ويجب خلع هذا المتغلب بقوة السلاح[2] لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: 141].

المبحث الأول

القضاء على حركة الخوارج

ظل الخوارج فرقة واحدة يتبنون أفكاراً ومبادئ واحدة بصفة عامة إلى ما بعد وفاة يزيد حين بدأوا ينشقون على أنفسهم، وكلما اختلف أحدهم مع رفاقه في الرأي، انشق عنهم مكوناً له فرقة خاصة، حتى وصل عدد فرقهم إلى أكثر من ثلاثين فرقة[3]، ومن أشهر فرق الخوارج التي قاتلها عبد الملك: الأزارقة والصفرية.

أولاً: الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق، الذين يعدون أشد فرق الخوارج تطرفاً في الأفكار والمبادئ وجنوحاً إلى العنف، وكان زعيم هذه الفرقة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه، فقد برئ من القاعدين، الذين لا يخرجون معه للقتال، كما قال بكفر من لم يهاجر إليه[4]. فضلاً عن إباحته أموال ودماء مخالفيه، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده في النار[5]، ومن أهم ما تميزت به هذه الفرقة:

- الانفصال الكامل عن المجتمع المسلم، حيث زعم نافع وأتباعه أن دار مخالفيهم دار كفر.

- إيمانهم بمبدأ الاستعراض فكانوا يتعرضون للناس بالقتل والنهب، فقد أباحوا لأنفسهم قتل الرجال والنساء والصبيان «من المسلمين».

---

(1) حاشية نور الدين الشبراملسي على شرح الرملي (7/ 392).
(2) رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 305.
(3) مقالات الإسلاميين للأشعري (1/ 157) رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 305.
(4) مقالات الإسلاميين (1/ 157).
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 456.

- أنهم كفروا القعدة. ونافع أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال، وإن كانوا موافقين له على دينه، وكفر من لم يهاجر إليه، فهذه من أهم البدع التي فارق بها الأزارقة بقية الخوارج[1].

فارق الأزارقه بقيادة نافع بن الأزرق عبد الله بن الزبير عندما تبين لهم أنه لم يكن على رأيهم فيما يذهبون إليه، وقد انبث أفراد هذه الفرقة الخارجة في مناطق البصرة والأهواز وما وراءها من بلاد فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير وصاروا يحاربون المسلمين جهاراً[2]، وجاءت تولية المهلب على حرب الأزارقة بناء على اختيار أهل البصرة له واقتران ذلك بموافقة عبد الله بن الزبير[3]، إلا أن المهلب لم يخرج لقتالهم إلا بعد أن اشترط على أهل البصرة جملة شروط أجابوه إليها، فخوّل الحق باختيار من يشاء من المقاتلة، وأن تكون له إمرة وخراج كل بلد يقع في حوزته[4]، وانتخب المهلب اثني عشر ألف رجل من أخماس البصرة، ولم يكن في بيت المال سوى مئتي ألف درهم عجزت عن عطاء الجند وعن تجهيزاتهم، فبعث المهلب إلى التجار وقال لهم: إن تجارتكم منذ حول قد كُسِرت بانقطاع موارد الأهواز وفارس عنكم، فهلمّ فبايعوني واخرجوا معي أُوفيكم إن شاء الله حقوقكم، فأخذ منهم من المال ما يصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه ما يلزم من التجهيزات، فلما انتصر المهلب على الخوارج، قام بجباية الخراج من الكور حتى قضى للتجار ما أخذ منهم[5].

استمر المهلب يقاوم الخوارج ما يقرب من عامين، ثم استدعاه مصعب بن الزبير الذي أصبح والي البصرة من قبل أخيه عبد الله ليشترك معه في حرب المختار الثقفي سنة 67هـ، وبعد هزيمة المختار عيَّن مصعب المهلب والياً على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية[6]، ولكن أحداً لم يستطع أن يقوم مقام المهلب في مقاومة الخوارج مما اضطر مصعباً أن يستدعيه من الموصل ليتولى قتالهم من جديد[7]، وبينما المهلب يقاوم الخوارج في الأهواز تمكن عبد الملك بن مروان من سيطرة الدولة الأموية على العراق، بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة 72هـ[8]، وولي أخاه بشر بن مروان على العراق وأمره بإبقاء المهلب على حرب الخوارج ومساعدته، فعمل بشر بما أمره به عبد الملك وبرهن المهلب على إخلاصه في حرب الخوارج

(1) الخوارج: دراسة ونقد لمذهبهم، ناصر السعوي، ص: 76.
(2) آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ، ص: 37.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن آل المهلب بن أبي صفرة، ص: 37.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن آل المهلب بن أبي صفرة، ص: 37.
(5) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 383.
(6) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 462.
(7) المصدر نفسه. (8) المصدر نفسه.

الأزارقة مهما كانت السلطة التي تصدر إليه الأوامر[1]، فكما قاتلهم تحت لواء آل الزبير استمر يقتالهم تحت لواء عبد الملك، ولما أسندت ولاية العراق إلى الحجّاج بن يوسف الثقفي سنة 75هـ جدّ في مساعدة المهلب وحشد له العراقيين وشد أزره، فاشتد في مقاومتهم حتى تمكن من القضاء على خطرهم، وقد أتاح له الخوارج أنفسهم فرصة كسر شوكتهم عندما انقسموا على أنفسهم قسمين، قسم تزعمه رجل اسمه عبد ربه وقد قضى عليه المهلب نهائياً[2]، وأما قطري بن الفجاءة ومجموعته فقد رحلوا إلى طبرستان، ولكن المهلب تمكن من القضاء عليهم سنة 77هـ بمساعدة جيش أرسله إليه الحجّاج بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي[3]، وهكذا قضى المهلب على خطر من أكبر الأخطار التي هددت الدولة الأموية في عهد عبدالملك بن مروان، وهم الخوارج الأزارقة الذين كان مسرح عملياتهم العراق وبلاد فارس وكرمان والأهواز، واستمرت حركتهم ثلاثة عشر عاماً 65 - 78هـ[4].

1 - وصف المهلب بن أبي صفرة الأزدي وشيء من أقواله:

وصف المهلب بأنه كان نزر الكلام وجيزه، يفضل فعله على لسانه[5]، متلطفاً في إجاباته[6]، كاتماً للسر[7]، حليماً في موضع الحلم، شديداً في موضع الشدة، وإن كان الحلم أغلب عليه، فيروى أن رجلاً شتمه فلم يرد عليه: فقيل له: لم حلمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه[8]، واتصف المهلب بصبره وأناته في أعماله وحروبه وكان يقول: أناة في عواقبها فوت خير من عجلة في عواقبها درك[9]، وعندما كان الحجّاج يستعجله بمناجزة الأزارقة الخوارج، أجابه بقوله: إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره[10]، ومما اشتهر به المهلب في حروبه هو إعداده للبيات وأحكامه الأمور[11]، أي أنه كان يباغت أعداءه بشن الهجوم عليهم ليلاً فيحرز انتصارات مؤزرة، واشتهر المهلب بكرمه وسخائه، ومن أقواله لأبنائه في هذا الباب: ما رأيت أحداً بين يدي قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه، واعلموا يا بني أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم[12]، وكان يحرص على شراء ود الناس وله قول مأثور في ذلك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري

(1) العراق في العصر الأموي، ص: 233، 234.
(2) تاريخ الطبري (7/ 83 إلى 89).
(3) المصدر نفسه نقلاً عن العالم الإسلامي، ص: 264.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 464.
(5) الأخبار الطوال، ص: 281.
(6) المصون في الآداب، ص: 187.
(7) المحاسن والأضداد، ص: 14، آل المهلب، ص: 22.
(8) الكامل في اللغة والأدب (2/ 314) آل المهلب، ص: 22.
(9) المحاسن والمساوئ (2/ 91).
(10) العقد الفريد (1/ 87).
(11) البيان والتبيين (1/ 253).
(12) قلائد العقيان في محاسن الأعيان، ص: 198.

الأحرار بمعروفه[1]، وقيل له: بم ظفرت؟ قال: بطاعة الحزم، ومعصية الهوى[2].

2 - من أساليب المهلب في قتال الخوارج:

كانت سياسة المهلب تقوم على النفس الطويل في محاربة الخوارج وكان ينتظر تفجيرهم من الداخل، حتى يهون عليه أمرهم ويسهل القضاء عليهم، فقد كتب إلى الحجّاج: إني انتظر منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطري بن الفجاءة، أو فرقة وتشتيتاً، أو جوعاً قاتلاً[3]، ولم تخطئ تقديرات المهلب للخوارج إذ سرعان ما دبّ الشقاق في صفوف الأزارقة، فما كان من المهلب إلا أن انتهز الفرصة فصعّد الخلاف في صفوفهم، فعمد إلى حيلة ناجحة، فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة، فأرسل المهلب أحد أصحابه، بكتاب أمره أن يلقيه بين عساكر قطري سراً كتب فيه: أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما استوضح من الصانع أنكر فقام قطري بن الفجاءة بقتله، فخالفه بذلك عبد ربه الكبير ووقع خلاف جديد[4]. وتعميقاً للخلاف في صفوف الخوارج جنّد المهلب رجلاً نصرانياً وأمره أن يسجد لقطري بن الفجاءة فلما شاهده الخوارج أنكروا ذلك عليه وقتلوا النصراني واتهموا زعيمهم بتأليه نفسه[5]. وأخذ الخوارج يقتتلون فيما بينهم، بينما المهلب ينتظر النتائج النهائية التي تسفر عنها هذه التصفيات ليتفرغ لها، مما جعله لا يمتثل لأمر الحجّاج عندما طالبه بمقاتلتهم، بل كتب له: إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، فإن تمّوا على ذلك فهو الذي تريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رمق بعضهم بعضاً، فأناهضهم حينئذٍ، وهم أهون ما كانوا وأضعفهم شوكة إن شاء الله تعالى[6]، فكف عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم[7]، ثم سار إليهم المهلب وتهيأت له الخوارج بقيادة عبد ربه الكبير ثم تلا ذلك قتل شديد تمكن المهلب في نهايته من طردهم من جيرفت، ثم لاحقهم حتى هزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد ربه ولم ينج منهم إلا عدد قليل[8]، ولعل نجاح المهلب يعود إلى أسلوبه الحربي، الذي يعتمد على المطاولة ويتجنب العجلة، بجانب قيادته الحكيمة وشجاعته وخبرته العسكرية ومكره في الحروب[9]. قال الشاعر:

قد يدرك المرء بالتدبير ما عجزت عنه الكماة ولم يحمل على بطل

(1) آل المهلب بن أبي صفرة، ص: 24.
(2) سرح العيون لابن نباته، ص: 113.
(3) الفتوح (7/ 14).
(4) الكامل في الأدب (3/ 1139 - 1140).
(5) الكامل في التاريخ (3/ 128).
(6) المصدر نفسه (3/ 129).
(7) الأخبار الطوال، ص: 276.
(8) الكامل في التاريخ (3/ 129)
(9) تجديد الدولة الأموية، ص: 95.

ونتيجة انتصاراته ضد الخوارج فقد رأى فيه الخليفة عبد الملك بأنه قادر على إيجاد التوازن بين الأطراف القبلية المتنازعة فولّاه على خراسان، فمكث فيها خمس سنوات إلى أن توفي عام 82هـ[1].

3 - قطري بن الفجاءة التميمي:

خرج زمن مصعب بن الزبير، فبقي عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة[2] - عند الخوارج الأزارقة - وهزم الجيوش، واستفحل بلاؤه، جهز إليه الحجّاج جيشاً بعد جيش فيكسرهم، وغلب على بلاد فارس، وله وقائع مشهودة، وشجاعة لم يسمع بمثلها وشعر فصيح سائر[3]، فله:

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاعِ
ولا ثوب الحياة بثوب عزٍّ ... فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حيٍّ ... وداعية لأهل الأرض داعي
ومن لم يُعتبط يهرم ويسأم ... وتُسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ في حياة ... إذا ما عُدَّ من سقط المتاع[4]

وقد أرسل الحجّاج لحربه سفيان بن الأبرد الكلبي فانتصر عليه وقتله، وقيل عثر به الفرس، فانكسرت فخذه بطبرستان، فظفروا به وحُمل رأسه سنة تسع وسبعين إلى الحجّاج، وكان خطيباً بليغاً كبير المحلّ من أفراد زمانه[5].

ثانياً: الخوارج الصفرية:

الخوارج الصفرية هم أحد فرق الخوارج الرئيسية وفي تعيين نسبتهم أقوالاً عدة، فقيل إنهم أتباع زياد بن الأصفر، وقيل: ابن عبد الله بن صفار، وقيل: عبد الله بن قبيصة، وأطلق عليهم ذلك اللقب لأن العبادة أنهكتهم فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى تلك الصفرة[6]، وأي كان ذلك السبب فقد بدأت خطورة أمرهم من الصالحية أو أتباع صالح بن مسرح التميمي، ذلك الرجل الذي كان موطنه بين نصيبين ومساروين وهو مؤسس فرقة الخوارج الصالحية وسمت هذا

(1) الكامل في التاريخ (3/ 152).
(2) شذرات الذهب (1/ 325).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 152).
(4) المصدر نفسه (4/ 152).
(5) المصدر نفسه (4/ 152).
(6) الخوارج، ناصر عبد الله، ص: 81، الحجاج بن يوسف، جمال محمود، ص: 81.

الرجل الصمت والهدوء، وعدم التعجل لذا ظل يعلم الناس في هدوء وسكينة عشرين سنة[1]، وكان من أهم أتباعه وأنصاره، ذلك الرجل المقدام الذي دوّخ جيوش الحجّاج في مواقع عدة، وهو شبيب بن يزيد الشيباني، والذي كان يسكن في الجانب الأيمن من الفرات في صحراء الكوفة، وبدأ أمر الخوارج يعلو ولاسيما بعد محاولة شبيب اغتيال عبد الملك بن مروان في موسم الحج لولا وصول الخبر إلى عبد الملك فأخذ حذره وانقضى الموسم بسلام. وبدأ الحجاج في التضييق على صالح وأتباعه، فنزلوا جميعاً وبعثوا إلى إخوانهم واستعدوا للخروج على دولة الخلافة، وكان الرجل من الخوارج كأنه جيش بمفرده بعدته وعتاده، وكانت وقعات الخوارج مع جيوش الحجّاج كثيرة العدد، وقد بدأت هذه الفرقة بالخروج على دولة الخلافة وهم مائة وعشرون[2]. وكانت بداية هذه الثورة من الموصل في شمال العراق وكانت ثورة خطيرة جداً، فقد تمكن قائدها شبيب بن يزيد من هزيمة العديد من جيوش الحجّاج الجرارة وهي في عدد قليل، وتمكن من دخول الكوفة[3]، بعد أن قتل خمسة قوّاد أرسلهم الحجّاج لحربه واحداً بعد واحد، وكانت زوجته غزالة عديمة النظير في الشجاعة[4]، وكانت نذرت أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران[5]، ووفت بنذرها[6]، وعيّر عمران بن حطان شاعر الخوارج الحجّاج فقال:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفُرُ من صفير الصافر
هلّا كررت على غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر
قرعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت مناظره كأمس الغابر[7]

وقد قتل شبيب عدداً من أشراف الكوفة ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها فخرج منها، ثم عاد إليها ثانية وضرب عليها الحصار بعد أن هزم جيشاً للحجاج عدته ألوفاً، وقتل قائده عتاب بن ورقاء وهو في ستمائة رجل[8]، ولما يئس الحجّاج من أهل الكوفة لتقاعسهم عن القتال وهالته هزائمهم المتكررة وهم في أعداد كبيرة أمام شبيب وهو في أعداد قليلة، أرسل إلى عبد الملك ابن مروان يطلب مدداً من أهل الشام واضطر الحجاج أن يقود الجيش بنفسه، واستطاع هزيمة شبيب لأول مرة، فلاذ بالأهواز، فأرسل الحجّاج خلفه جيشاً التقى به هناك، ولم تكن النتيجة حاسمة لأي من الفريقين، غير أن شبيب غرق بينما كان يعبر أحد الأنهار فلما سقط قال: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42] وانغمس في الماء، ثم ارتفع وقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ

(1) تاريخ الطبري (7/ 104 - 112).
(2) تاريخ الطبري (7/ 108).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 146).
(4) المصدر نفسه (4/ 145، 146).
(5) الكامل في التاريخ (3/ 121).
(6) شذرات الذهب (1/ 316).
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 147) تاريخ ابن عساكر (46/ 338).
(8) العراق في العصر الأموي، للراوي، ص: 238.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: 96] وغرق[1]، وبهذا تخلص منه الحجّاج بعد أن كبد الدولة كثيراً من الأموال والأرواح[2]، ولولا الله ثم تدخل عبد الملك لكان من الممكن أن تتغير الأوضاع السياسية في العراق والمناطق الشرقية، فقد استطاع أن يسوي المتكلة ووضع لها الحل المناسب من تجهيز الجيوش وإرسالها، وتولية القيادة المحنكين ليواجهوا شيبياً[3]. ومن اللطائف التي تذكر: حضر عتبان الحروري عند عبد الملك بن مروان فقال: أنت القائل:

فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنّا حُصينٌ والبطينُ وقعنبٌ ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

فقال: إنما قلت: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ. على النداء فأعجبه وأطلقه[4]. وهذا الجواب في نهاية الحسن، فإنه إذا كان «أمير» مرفوعاً كان مبتدأ فيكون شبيب أمير المؤمنين، وإذا كان منصوباً فقد حذف منه حرف النداء ومعناه يا أمير المؤمنين منا شبيب، فلا يكون شبيب أمير المؤمنين، بل يكون منهم[5].

1 - من شعراء الخوارج عمران بن حطان:

هو عمران بن حطّان ابن ظبيان، السدوسي البصري، من أعيان العُلماء، لكنّه من رؤوس الخوارج، حدّث عن عائشة وأبي موسى الأشعريّ وابن عباس، قال أبو داود: ليس في أهل الأهواء أصحُّ حديثاً من الخوارج ثم ذكر عمران بن حطان، وأبا حسّان الأعرج[6]، وقد تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث على منهج أهل السنة، ثم تزوج قريبة له - كانت على مذهب الخوارج - يريد أن يصرفها عن مذهبها، لكنها استمالته إلى مذهبها، كان ذلك وقد كبرت سنه وطال عمره، فضعف عن الحرب، وقنع بالدعاية إلى مذهبه بلسانه، ولم يستطع أن يشارك في الحرب بسيفه ورضي القَعدة من الصفرية منه بهذا البياني وطارده الحجّاج، ففر من العراق إلى الشام وجعل يتنقل من مدينة إلى مدينة في استخفاء وتمويه وتغيير للأسماء، ونزل على روح بن زنباع الجذامي وأنس إلى كرمه وأخلاقه وادّعى أنه أزديّ، فاستضافه روح سنة كاملة كان فيها معجباً بتقوى ضيفه الأزدي وعلمه وأدبه، وكان روح لا يسمع شعراً نادراً أو حديثاً غريباً عند عبد الملك ثم يقصه على صاحبه، أو يسأله عنه، إلا وجده عليماً به، وزائداً عليه وذات يوم حدّث روح عبد الملك بن مروان بمزايا ضيفه الأزدي فقال عبد الملك: إنه عمران ابن حطّان فأحضره[7]، وكان عبد الملك بن مروان قد أهدر دمه لما بلغ شعره عبد الملك

(1) الكامل في التاريخ (3/ 123).
(2) انظر: تاريخ الطبري (104 إلى 112).
(3) تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك، ص: 106.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 106).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 456).
(6) المصدر نفسه (4/ 214).
(7) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 526، سير أعلام النبلاء (4/ 216).

في علي ﷺ وأدركته حمية لقرابته من علي ﷺ ووضع عليه العيون، وشعر عمران في علي قوله:

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنِّي لأذكره حيناً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم ... لم يخلطوا دينهم بغياً وعدوانا[1]

وعندما علم عمران بطلب عبد الملك له هرب إلى الجزيرة ثم لحق بعمان فأكرموه[2] وقال شعراً في روح بن زنباع لما فارقه حيث قال:

يا روح كم من كريم قد نزلت به ... قد ظنّ ظنّك من لخم وغسان
حتى إذا خفته زايلت منزله ... من بعد ما قيل: عمران بن حطان
قد كنت ضيفَكَ حولاً ما تُروّعُني ... فيه طوارق من إنس ولا جان
حتى أردْتَ بي العظمى فأوحشني ... ما يوحش الناس من خوف ابن مروان
لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية ... كنت المقدَّم في سرٍّ وإعلان
لكن أبت لي آيات مُفصَّلةٌ ... عقد الولاية في «طه» و«عمران»[3]

فهو في ثنائه على ابن زنباع لم يبح لنفسه أن يستغفر له، لأنه ليس في رأيه ممن يستحقون المغفرة، فهو طاغية وكافر، على طريقة أكثر الخوارج في تكفير مخالفيهم[4]، وكان من فحول الشعراء وقد شهد له بذلك الفرزدق، فقد وقف عمران بن حطان ذات يوم على الفرزدق وهو ينشد الناس فقال له:

أيها السائل ليُعطي ... إن لله ما بأيدي العباد
فضل الله ما طلبت إليهم ... وارج فضل المقسّم العواد
لا تقل للئيم ما ليس فيه ... وتسمّي البخيل باسم الجواد[5]

وجاء في رواية أن الفرزدق قال: الحمد لله الذي شغل عنا هذا ببدعته ولولا ذلك للقينا منه[6] عتاً، ومن شعر عمران في الزهد في الدنيا والتزود للآخرة، فعن قتادة قال: لقيني عمران ابن حطان، فقال: يا أعمى، احفظ عني هذه الأبيات:

حتى متى تُسقى النُّفوس بكأسها ... ريب المنون وأنت لاه ترتع
أفقد رضيت بأن تُعللَّ بالمُنى ... وإلى المنيَّة كلَّ يوم تُدْفَعُ
أحلامُ نوم أو كظل زائلٍ ... إن اللبيب بمثلها لا يُخْدَعُ

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 215).
(2) المصدر نفسه (4/ 216).
(3) المصدر نفسه (4/ 215).
(4) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 530.
(5) تاريخ دمشق (46/ 336).
(6) المصدر نفسه (46/ 336).

فتزوّدنَّ ليوم فقرك دائماً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع[1]

ومن شعره في الموت ورثاء مرداس قوله:

إن كنت كارهة للموت فارتحلي ثم اطلبي أهل أرضٍ لا يموتون
فلست واجدة أرضاً بها بشر إلاّ يروحون أفواجاً ويغدون
إلى القبور فما تنفك أربعة بذي سرير إلى لحد يمشونا
يا حمز قد مات مرداسٌ وأخوته وقبل موتهم مات النبيونا[2]

وقد شهد له النقّاد في الشعر بأن شعره كان يتسم بانتقاء مفرداته في غير توعر وإغراب، وبجزالة عباراته في نسق لا تعقيد فيه ولا التواء ولا اعتساف بتقديم وتأخير وكان يبتعد عن الخيال وما يجره من تهويل وتضخيم[3]، ومما يذكر في سيرة عمران بن حطان أن الحجّاج ظل يطارده ويطلبه طويلاً حتى ظفر به فقال للحرس: اضرب عنق ابن الفاعلة فقال عمران بئس ما أدبك به أهلك يا حجّاج، أبعد الموت منزلة أمانعك عليها على ما كان منك أن ألقاك بمثل ما لقيتني به؟ فقال الحجّاج: صدق أطلقوا عنه، فلما انطلق إلى الخوارج قالوا له: ارجع إلى قتال الحجاج فوالله ما هو أطلقك الله الذي أطلقك، فقال هيهات: غلَّ يداً مطلقها واستقر رقبة معتقها، ثم قال:

أأقاتل الحجّاج عن سلطانه بيد تقر بأنها مولاته
ماذا أقول إذا وقفت حياله في الصف واحتجت له فعلاته
وتحدث الأقوام أن صنيعه غرست لدى فحنظلت نخلاته
تالله لو جئت الأمير بآكة وجوارحي وسلاحي آلاته[4]

هذا وقد توفي عمران بن حطان سنة 84هـ[5]

2 - أسباب فشل ثورات الخوارج في عهد عبد الملك:

فشلت ثورات الخوارج في تحقيق الهدف الذي كانت تسعى إليه لأسباب منها:

أ - أن الخوارج كانوا يخرجون في أعداد قليلة وفي أوقات متباعدة مما سهل على ولاة الدولة الأموية القضاء عليهم.

ب - طغيان مذهب التشيع على أهل الكوفة ومناقضة ذلك المذهب لمبدأ الخوارج وكره أهل الكوفة والشيعة عامة للخوارج لخروجهم على أمير المؤمنين علي ﷺ وتكفيرهم إياه فساعد هؤلاء ولاة الدولة في غالب الأحيان على قتال الخوارج.

---

(1) تاريخ دمشق (46/ 339).
(2) المصدر نفسه (46/ 340).
(3) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 528، 529.
(4) الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، ص: 375.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 216).

جـ - موقف أهل البصرة واندفاعهم إلى مقاومة الخوارج والقضاء عليهم ليحافظوا على تجارتهم واستمرارها.

د - تفرق الخوارج إلى فرق متعددة مما أدى إلى إضعافهم وتفتيت وحدتهم، فسهل على ولاة الدولة القضاء عليهم.

هـ - الأعمال التخريبية التي كانوا يحدثونها من قتل النساء والأطفال وقتل مخالفيهم وإحراق القرى وكسر الخراج وقطع طرق التجارة مما أدى إلى كرههم من جانب الناس عامة، فاندفعوا إلى مساعدة ولاة الدولة في القضاء عليهم. هذه هي أهم الأسباب التي جعلت الخوارج يفشلون في التخلص من الحكم الأموي، وتطبيق أفكارهم ومعتقداتهم التي يؤمنون بها[1].

المبحث الثاني

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث

هذه واحدة من الثورات العديدة التي قام بها أهل العراق ضد الدولة الأموية، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة، بل دفع إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والي العراق الحجّاج بن يوسف وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي[2]، وقد بدأت هذه الثورة العارمة من إقليم سجستان، ذلك الإقليم الذي أتعب الأمويين وكان كثير الانتقاض والتمرد عليهم[3]، فلما كانت ولاية الحجّاج بن يوسف على العراق (75 هـ - 95 هـ) صبر على مضض على تجاوزات رتبيل ملك سجستان ضد الدولة واستغلاله الظروف الصعبة التي كانت تمر بها، ومنعه الجزية، فلما انتهت مشاكل العراق الخطيرة وكسرت شوكة الخوارج سنة 78 هـ. قرر أن يؤدب رتبيل[4]، فأرسل الحجّاج إليه جيشاً بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة سنة 79 هـ، وأمره الحجّاج أن يتوغل في بلاد رتبيل وأن يدك حصونهم وقلاعهم، ففعل ما أمره به الحجّاج، وتمكن من هزيمة رتبيل واجتياح بلاده وغنم غنائم كثيرة، ولكن رتبيل أخذ في التقهقر فأطمع المسلمين في اللحاق به حتى وصلوا قريباً من مدينته العظمى، عند ذاك بدأ الترك يغلقون على المسلمين الطرق والشعاب وحصروهم وقتل عامة جيش المسلمين[5].

(1) العراق في العصر الأموي، ثابت الرواي، ص: 243، 244.
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 183).
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 507.
(4) تاريخ الطبري (7/ 218).
(5) تاريخ الطبري (7/ 219) تاريخ خليفة، ص: 277.

أولاً: أعداد وإرسال جيش الطواويس إلى سجستان بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث:

أراد الحجّاج تأديب رتبيل وعقابه، فاستأذن عبد الملك بن مروان في أن يبعث جيشاً كبيراً بلغ عدده أربعين ألف مقاتل من أهل الكوفة وأهل البصرة وأنفق عليه ألفي ألف (مليونين) سوى أعطيات المقاتلين، وبالغ في تجهيزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل[1]، وبلغ من فخامة الجيش أن سماه الناس جيش الطواويس[2]، وأسند قيادته إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث. والحجّاج بإسناده قيادة هذا الجيش الكبير عدة وعدداً لابن الأشعث وهو يعلم موقفه منه، يهيئ للثورة عليه وعلى الدولة الأموية، وقد نبه الحجّاج إلى هذاالخطأ الفادح، حيث قال له عم ابن الأشعث إسماعيل بن الأشعث: لا تبعثه فإني أخاف خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطان[3]، ولكن يبدو أن الحجّاج قد خانه ذكاؤه هذه المرة، أو كان مفرطاً في ثقته بنفسه، فلم يسمع نصيحة إسماعيل ورد مستخفاً بعبد الرحمٰن، فقال: هولي أهيب وفي أرغب من أن يخالف أمري، أو يخرج عن طاعتي[4]، ومضى عبد الرحمٰن بهذا الجيش العظيم إلى سجستان لتأديب رتبيل، وكان ذلك في سنة 80هـ، فلما بلغته الأخبار، كتب إلى عبد الرحمٰن يعتذر إليه مما حل بالمسلمين في بلاده ويطلب منه الصلح ولكن عبد الرحمٰن لم يقبل[5]، وأخذ يتوغل في بلاده، وهنا حاول رتبيل أن يكرر مع عبد الرحمٰن ما صنعه مع عبيد الله بن أبي بكرة، فأخذ يخلي البلاد والحصون أمامه ليوقعه في شركه، ولكن ابن الأشعث فطن إلى ذلك، وكان كما يقول الطبري: لكلما حوى بلداً بعث إليه عاملاً وبعث معه أعواناً، ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف، حتى إذا جاز من أرضه أرضاً عظيمة، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس الناس عن الدخول في أرض رتبيل، وقال: نكتفي بما أصبناه العام في بلادهم، حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقصهم في كل طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم ، وفي أقصى بلادهم وممتنع حصونهم، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله[6]. وهذه خطة سديدة وعملية، وتدل على ذكاء وحنكة وتجربة وقد كتب إلى الحجّاج بما حققه من فتوحات وبخطته التي اعتزم تنفيذها[7]، ولكن الحجّاج - ودون أن يستشير أحداً من أهل الحرب - رفض هذا الرأي واستهجنه وكتب إلى ابن

(1) تاريخ الطبري (7/ 224).
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 508.
(3) تاريخ الطبري (7/ 224).
(4) تاريخ الطبري (7/ 224).
(5) المصدر نفسه (7/ 225).
(6) المصدر نفسه (7/ 225).
(7) المصدر نفسه (7/ 225).

الأشعث ثلاثة كتب على التوالي سفه فيها رأي ابن الأشعث وهدده فيها بالعزل إن لم يفعل ما يأمره به ورماه فيها ببعض الأوصاف المقذعة[1].

ثانياً: تمرد عبد الرحمن بن الأشعث بجيشه على الحجّاج:

وبرفض الحجّاج رأي ابن الأشعث، وبأسلوبه القاسي، وتعامله السيء، أذكى نار الفتنة وعجّل بأسباب الثورة عليه، وقد أعماه فرط ثقته بنفسه واحتقاره لغيره عما ستؤدي إليه تلك التصرفات الهوجاء من عواقب خطيرة، وأثارت مكاتبات الحجّاج حفيظة عبد الرحمٰن بن الأشعث وحركت ما في نفسه من كره للحجّاج فجمع الناس وخطبهم مبيناً لهم نصحه لهم ومعرضاً برأي الحجّاج، وطلب منهم الرأي، فثار إليه الناس فقالوا: بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع[2]، وانفتح الباب لكل من أراد أن يتكلم، فتكلم عامر بن واثلة الكناني وكان شاعراً خطيباً فكان مما قال: فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. وبعد كلامه دعا الناس إلى خلع الحجّاج ومبايعة عبد الرحمٰن بن الأشعث، فبايعهم ابن الأشعث على خلع الحجّاج والقتال معه حتى ينفي الله الحجّاج من العراق، ولم يذكر خلع عبد الملك[3]، ومن هنا بدأت ثورة ابن الأشعث وهذه الثورة وإن لم تكن لها جذور بعيدة وإن لم تسبقها خطوات إعداد كبيرة إلا أنها كانت من أخطر الثورات التي قامت على الدولة الأموية أو أخطرها، حيث هددت كيان الخلافة بالزوال واضطرت الخليفة إلى مساومة أصحابها بما لم يساوم به غيرهم من أصحاب الثورات السابقة[4]، وانحدر ابن الأشعث بجيشه وانضم إليه خلق كبير في طريقه إلى العراق قاصداً الحجّاج، فلما جاء الخبر الحجّاج أصيب بالهلع والذعر، فكتب إلى عبد الملك يخبره بالأمر ويطلب منه المدد، فتوالت الكتب بينه وبين عبد الملك يخبره بالأمر ويطلب منه المدد وتوالى إرسال الجيوش من عبد الملك في كل يوم إلى الحجّاج[5].

1 - موقف المهلب بن أبي صفرة من الأحداث:

كان المهلب بن أبي صفرة قد نهى ابن الأشعث عن فعلته قائلاً: إنك وضعت رجلك يا ابن محمد في غرز طويل الغي على أمة محمدﷺ، الله الله فانظر لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها. فإن قلت: أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه عليها من الناس، فلا تعرضها لله في سفك دم، ولا استحلال محرم.

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 231)
(2) المصدر نفسه (7/ 232).
(3) المصدر نفسه (7/ 233).
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 547.
(5) المصدر نفسه، ص: 547.

وكتب المهلب كذلك إلى الحجّاج بما يجب عليه أن يفعله في مواجهة ابن الأشعث حيث قال: فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علٍ، وليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شرة في أول مخرجهم، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويشموا أولادهم، ثم وافقهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله[1]. ولكن لم يعر ابن الأشعث نصح المهلب أدنى اهتمام، فتقدم نحو العراق، وفي وسط الطريق أقدم ابن الأشعث ومن معه على خطوة خطيرة وهي خلع الخليفة عبد الملك بن مروان والسعي إلى تنحيته[2]، كما أن الحجّاج نظر إلى نصح المهلب من منظوره المتشكك فيمن حوله فعده غشاً من المهلب، فقد قال عندما قرأ كتابه: فعل الله به وفعل، والله ما لي نظر، ولكن لابن عمه نصح[3].

2 - معركة الزاوية[4]:

قرر الحجاج مواجهة ابن الأشعث، ومن معه قبل دخولهم العراق، فأرسل الكتائب تلو الكتائب ولكن لم تستطع إيقاف زحف ابن الأشعث فهزمها، وتقدم حتى دخل البصرة بعد أن خرج منها الحجّاج فاراً بنفسه ومن معه من أهل الشام، ونزل بالزاوية، عند ذلك أيقن الحجّاج بصدق المهلب في نصحه له فقال: لله أبوه، أي صاحب حرب هو! أشار علينا بالرأي فلم نقبل[5]، وانضم إلى ابن الأشعث جموع كثيرة من أهل البصرة، والتقى ابن الأشعث بالحجّاج في الزاوية وتتالت الهزائم بجيش الحجّاج، إلا أنه سنحت فرصة لفرقة من فرق الحجّاج حيث تمكنت من إلحاق الهزيمة بإحدى فرق ابن الأشعث، فاستغل الحجّاج الفرصة وكثف الهجوم على خصمه، فاضطر ابن الأشعث إلى التراجع وسار نحو الكوفة تاركاً البصرة، فبايعه أهل الكوفة ولحق به أهل البصرة، وانضم إليه أهل المسالح والثغور[6]، وبلغ عدد من معه مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم[7]، وقد دفعت الموالي أسباباً كثيرة للاشتراك في ثورة ابن الأشعث.

أ - السياسة المالية التي تبعها الحجّاج نحوهم وإجبارهم على دفع الجزية بعد إسلامهم.

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 235).
(2) المصدر نفسه (7/ 234).
(3) المصدر نفسه (7/ 235).
(4) الزاوية: لفظ يطلق على عدة أماكن والمراد به هنا موضع قرب البصرة، معجم البلدان (3/ 128).
(5) تاريخ الطبري (7/ 237).
(6) تاريخ الإسلام للذهبي، ص: 9.
(7) تاريخ الطبري، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 549.

ب - حرمانهم من الأعطيات والأرزاق عند اشتراكهم في الفتوح.

جـ - حرمانهم من المساواة وشعورهم بالظلم من ممارسة بعض ولاة الدولة الأموية[1]، وغير ذلك من الأسباب. اغتم عبد الملك لما حدث ولما وصله الخبر نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية، ودعاه فأقرأه الكتاب، ورأى ما به من الجزع فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان هذا الحدث من قبل سجستان، فلا تخفه، وإن كان من قبل خراسان تخوفته، وخرج عبد الملك إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قدري، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك. ثم نزل[2].

3 - استعداد عبد الملك أن يضحي بالحجّاج ومعركة دير الجماجم:

لما رأى أهل الشام وبنو أمية قوة ابن الأشعث أشاروا على عبد الملك بعزل الحجّاج وقالوا: إن كان إنما يرضي أهل العراق أن تنزع عنهم الحجّاج فانزعه عنهم، تخلص لك طاعتهم، فإن عزله - أيسر من حربهم، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان بالجيش إلى العراق وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجّاج عنهم، وأن يجري عليهم العطاء، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد شاء من العراق ويكون والياً، فإن قبلوا ذلك نزعنا عنهم الحجّاج ويكون محمد بن مروان مكانه على العراق، وإن أبوا فالحجّاج أمير الجميع وولي القتال[3]، ولم يكن أمر أشق على الحجّاج ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر، وكان من الطبيعي أن يستاء الحجّاج من هذا، وعزّ عليه أن يضحي به عبد الملك بن مروان، بعد كل ما قدمه له من خدمات[4]، وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع عثمان بن عفان ﷺ، قال له: يا أمير المؤمنين، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفونك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على عثمان بن عفان، فلما سألهم ما يريدون قالوا: نزع سعيد ابن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه: إن الحديد بالحديد يفلح خار الله لك فيما رأيت والسلام عليك[5]. غير أن عبد الملك كان مقتنعاً بالفكرة، وأن مصلحة الدولة عنده فوق كل اعتبار ورأى في ذلك منع الحرب[6]. ولكن من حسن حظ الحجّاج أنه لما عرضت الفكرة على أهل العراق رفضوها بقوة، مع أن ابن الأشعث قبلها، وحثهم على

(1) العراق في العصر الأموي، ثابت الراوي، ص: 245.
(2) تاريخ الطبري (7/ 236).
(3) المصدر نفسه (7/ 245).
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 515.
(5) تاريخ الطبري (7/ 245).
(6) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 515.

قبولها، لكنهم لم يوافقوه، بل جددوا خلع عبد الملك، وظنوا الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الأموي[1]، وكان الأولى بابن الأشعث أن لا ينساق لما تطلبه الجماهير، فقد ضاعت فرصة كبيرة في التخلص من الحجّاج وكان يمكنهم رفع سقف المطالب والضغط على عبد الملك حتى يستجيب لرفع المظالم، وإقامة العدل، والتقيد بالكتاب والسنة وإن انحرف عن شروطهم أمكنهم بعد ذلك عزله، ولكن يبدو أن الحس السياسي لدى زعماء ثورة ابن الأشعث كان غائباً، كما أن مبايعة أهل العراق لابن الأشعث جاءت في لحظات عاطفية ثورية ولم تكن نتيجة لمعرفة تامة به، وهل يستحق عن جدارة أن يكون أميرهم[2]؟. رفض ابن الأشعث تنازل عبد الملك في خلع الحجّاج وغيرها فعندها سلم محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك قيادة الجيوش الأموية للحجّاج وقالا: شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإنّا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك[3].

وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، فاشتبكا في أشهر وقائعهم - التي زادت عن ثمانين موقعة - في دير الجماجم[4] والتي استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث في الرابع من جمادى الآخرة سنة 83 هـ[5]، ثم دارت معركة أخرى بعدها في مسكن في شعبان من نفس السنة، فهزم ابن الأشعث أيضاً، ثم ولى هارباً إلى سجستان[6]، حيث كان تصالح مع رتبيل على أن يسقط عنه الخراج إن ظفر، وإن هزم يأوي إليه ويحميه[7]، ولكن الحجّاج هدد رتبيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل[8]، فرضخ للتهديد وعزم على تسليمه إليه، فلما أحسّ ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان فيه، فمات فأخذ رأسه وأرسلها إلى الحجّاج وكان ذلك سنة 85هـ[9]، وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذي قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين وهي ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة في نفس ابن الأشعث والحجّاج كل منهما للآخر من ناحية، وبغض أهل العراق للحكم الأموي من ناحية ثانية[10]، ومظالم الحجّاج العظيمة التي دفعت بجمهور كبير من العلماء للانضمام للثورة والتخلص من الطاغية الحجّاج.

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 246)
(2) حركة النفس الزكية، ص: 38.
(3) تاريخ الطبري (7/ 246).
(4) تقع دير الجماجم على سبعة فراسخ من الكوفة من طريق البصرة.
(5) تاريخ الطبري (7/ 254).
(6) المصدر نفسه (7/ 287).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 551، سير أعلام النبلاء (4/ 184).
(8) تاريخ الطبري (7/ 287).
(9) المصدر نفسه (7/ 289).
(10) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 516.

ثالثاً: موقف العلماء من ثورة ابن الأشعث:

يختلف موقف العلماء من حركة ابن الأشعث اختلافاً كثيراً عن موقفهم تجاه الحركات الأخرى ضد الدولة الأموية، إذ شارك جمهور غفير من العلماء في حركة ابن الأشعث هذه، سواء بتحريض الناس على المشاركة فيها أو بمشاركتهم المباشرة في القتال مع ابن الأشعث ضد الحجّاج، وقد استفاضت المصادر المتقدمة في ذكر تأييد العلماء ومشاركتهم في هذه الحركة، كما اجتمعت على كثرة عدد العلماء المشاركين ولكن على اختلاف بينهم في تقدير هذا العدد، فيذكر خليفة بن خياط، أن عددهم بلغ خمسمائة عالم، وعد منهم خمسة وعشرين عالماً[1]، ولعل من أسباب كثرة تلك الأعداد المذكورة إدخال غير العلماء فيها من أهل العبادة والصلاح وإن لم يشتهر عنهم العلم، حيث تردد إطلاق اسم القراء على هؤلاء المشاركين، ولعله يشمل العلماء وأهل الصلاح، والزهادة والمشهورين بكثرة التعبد[2].

1 - من أشهر العلماء المشاركين في حركة ابن الأشعث:

ويتتبع كثير من المصادر أمكن حصر العديد من أسماء العلماء المشاركين في تلك الحركة منهم:

أ - **أنس بن مالك** ﷺ: العالم الجليل والصحابي الكريم، فقد كان ممن يؤلب على الحجّاج ويدعو إلى الانضمام إلى ابن الأشعث، ولكنه لم يشارك مشاركة فعالة في القتال لكبر سنه[3].

ب - **ومنهم أبو الشعثاء سليم بن أسود المحاربي**، فقد شارك مع ابن الأشعث، وقيل قتل يوم الزاوية[4].

ج - **وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى**، كان من كبار المشاركين في تلك الحركة المحرضين على القتال فيها، وتوفي بوقعة الجماجم حيث اقتحم به فرسه الفرات فغرق ﷺ[5].

د - **الإمام الشعبي**: ولكن في مشاركته شيء من الإكراه إذ لم يكن في بداية الأمر على قناعة بالمشاركة، حيث روي عنه أنه قال: فلم أزل عنده - أي الحجّاج - بأحسن منزلة حتى كان شأن ابن الأشعث، فأتاني أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمرو، إنك زعيم القراء، فلم يزالوا حتى خرجت معهم[6].

---

(1) تاريخ خليفة، ص: 286، 287.
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 552.
(3) أنس بن مالك، طهماز، ص: 160 - 161.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 179)1,
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 264، 267) الطبقات (6/ 113).
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 327، 336) الطبقات (6/ 265).

هـ - **سعيد بن جبير**: ممن شارك مع ابن الأشعث وكان يحرض على القتال، ونجا من القتل وتوارى عن الحجّاج مدة، ولكن تمكن منه عندما قبض عليه والي مكة وأرسله إليه فقتله الحجّاج سنة أربع وتسعين[1]. وغير ذلك من العلماء، وهذا يدل على أن حركة ابن الأشعث لقيت من الدعم والمشاركة من العلماء ما لم تلقه أي حركة قامت ضد الدولة الأموية.

وقد كان لمشاركة العلماء في هذه الحركة - بهذا الحجم - أثر كبير على الحركة، فقد كانت مشاركتهم وراء انضمام كثير من الناس لتلك الحركة، ولا سيما أن بعض الفقهاء والقراء كانوا يسعون لإقناع أكبر عدد للانضمام إلى القتال خاصة من فئة العلماء[2]، كما كان للعلماء المشاركين أثر كبير في ميدان القتال، فكانت لهم كتيبة خاصة بهم تسمى كتيبة القراء[3]، وكان بعض العلماء يبعثون الحماس في أتباع ابن الأشعث بما يلقونه من خطب وما يصدرونه من نداءات أثناء القتال كان لها أثر في غرس الثقة في النفوس والثبات في مواطن اللقاء[4]، وقد لقي الحجّاج وجيشه عنتاً ومشقة من كتيبة القراء، فقد كان أصحابها يحملون حملة صادقة على جيش الحجّاج فما يعمد بها، ويضربون الكتائب حتى يفرقونها[5]، لذا عبأ الحجّاج لهذه الكتيبة ثلاث كتائب توقف زحفها والتقليل من خطرها عليه[6].

2 - أسباب مشاركة العلماء في ثورة ابن الأشعث:

انضم إلى حركة ابن الأشعث فئات وطوائف شتى، كل فئة مدفوعة بدافع تسعى لتحقيقه من خلال المشاركة في هذه الحركة، فهناك دوافع إقليمية، ودوافع عرقية، وأخرى اجتماعية، ولم يكن شيء من هذه حرّك العلماء للمشاركة في هذه الفتنة، وإنما انطلقوا من دوافع دينية وشرعية بحسب ما وصل إليه اجتهادهم، وقد كان القاسم المشترك لكل هذه الدوافع شخصية الحجّاج[7] الظالمة، المتعسفة، الجائرة، والمتعطشة لسفك الدماء، ولذلك كان العلماء ينقمون على الحجّاج تعديه لبعض حدود الإسلام وانتهاكه لبعض حرماته، وكانوا ينقمون عليه سوء معاملته وسوء نظرته للعلماء.

أ - **تعدي الحجّاج لبعض حدود الدين وانتهاكه لحرماته**: كان الحجّاج يملك جرأة عجيبة تعدى بها إلى غير مواضعها مما أدى إلى إحداث شرخ كبير في جانب من حياته المتعددة

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 327، 336).
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 557.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 558.
(4) الكامل في التاريخ (2/ 154)، تاريخ الطبري (7/ 255، 254).
(5) الكامل في التاريخ (4/ 150).
(6) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 558، الكامل في التاريخ (3/ 154).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 562.

الجوانب، فأسهم بذلك في تشويه صورته وصورة الحكم الأموي، وقد حرص بعض المولعين بشخصية الحجّاج إخفاء هذا الجانب المشوه من حياته، والدراسة الواعية المنصفة تأبى هذا المنهج، وما من شك في أنه ورد الكثير من المبالغات عن انتهاكات الحجاج لحرمات الدين وكثير منها لا يصح ودخل الدس من أعداء الحجّاج وبني أمية في صياغة كثير من هذه المبالغات، لذا فقد استبعدت[1] النقل والاعتماد في هذا الأمر على الكتب التي اشتهر عن أصحابها التهاون في إيراد الروايات دون تمحيص ولاسيما كتب الأدب، كالعقد الفريد لابن عبد ربه، والأغاني للأصفهاني، أو كتب الفرق المغالية في عداوتها لبني أمية كالشيعة، وحاولت[2] النقل والاعتماد على كتب السنة المشهورة بحفظ الأحاديث النبوية الشريفة وما يخدمها من روايات، وكذلك على الكتب المعتبرة التي اشتهر عن أصحابها التحري والدقة كالذهبي في سيره وتاريخه[3].

ويأتي في مقدمة تجاوزات الحجّاج الشرعية إسرافه في القتل وأمره به بأدنى شبهة حيث كان الحجّاج يرى وجوب الطاعة العمياء من الرعية له، وأن مخالفة أمره - في أي شأن كان صغر أم كبر - تبرر له القتل، فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عاصم قال: سمعت الحجّاج يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً[4]، وقال ابن كثير معلقاً على بعض تجاوزات الحجّاج مما يبين سبب استهانته بالقتل: . . فإن الحجّاج كان عثمانياً أموياً، يميل إليهم ميلاً عظيماً، ويرى خلافهم كفر، ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه في ذلك لومة لائم، وقال في موضع آخر: أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله ﷻ [5]، بسبب هذا المعتقد الذي استقر في نفس الحجّاج استهان بالقتل واشتهر إسرافه فيه لمخالفي أوامره صغرت أم كبرت، ومع ما ورد من مبالغات في الإحصاءات التي ذكرت عدد قتلى الحجّاج، فما من شك في تعديه الحدود المشروعة في القتل، ويؤيد ذلك ما صح عن المصطفى ﷺ بروايات متعددة تصف الحجّاج بأنه مبير، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت للحجّاج بعد قتله لابنها عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه : أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه[6]، وقد أنكر العلماء على الحجّاج هذا الإسراف في القتل، فروي عن الإمام عبد الرحمٰن بن أبي أنعم أنه قال للحجّاج: لا تسرف في القتل إنه كان

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 565.
(2) المصدر نفسه، ص: 565.
(3) المصدر نفسه، ص: 565.
(4) سنن أبي داود (4/ 210) صحيح الإسناد.
(5) البداية والنهاية (12/ 507 إلى 554).
(6) مسلم، كتاب: فضائل الصحابة (4/ 1971).

منصوراً، فقال الحجّاج: والله لقد هممت أن أروي الأرض من دمك. فقال: إن من في بطنها أكثر ممن في ظهرها[1]، وكان جواب سعيد بن جبير للحجّاج عندما سأله عن رأيه فيه فقال: نعم، ظهر منك جور في حد الله وجرأة على معاصيه بقتلك أولياء الله[2].

- **ومن التجاوزات التي كان العلماء ينكرونها على الحجّاج تأخيره للصلاة عن وقتها،** وتأخير الصلاة عن وقتها ليس خاصاً بالحجّاج بل كانت عادة عند بعض خلفاء بني أمية وسار ولاتهم على نهجهم، ولكن الذي يؤخذ على الحجّاج مع تأخيره الصلاة عدم قبوله تنبيه أحد من العلماء أو إبداء النصح منهم له في ذلك، وهذا مأخذ آخر أخذه العلماء على الحجّاج وهو عدم قبوله لقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]، ومن ذلك أن الحجّاج أنكر يوماً أن يكون الحسين بن علي ﷺ من ذرية رسول الله ﷺ لأنه ابن ابنته، فقال له العالم الجليل يحيى بن يعمر: كذبت. فقال الحجّاج: لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك فقال: قال الله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: 84-85]. فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، فقال الحجاج: صدقت، فما حملك على تكذيبي في مجلسي؟ قال: ما أخذ الله على الأنبياء ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187] فنفاه إلى خراسان[4].

- **ومن تجاوزات الحجّاج الشرعية تطاوله على أصحاب رسول الله ﷺ** وسوء تعامله مع العلماء، ومرّ معنا معاملته القبيحة لابن عمر، وابن الزبير والسيدة أسماء بنت الصديق ﷺ جميعاً، فمن ذلك تطاوله على عبد الله بن مسعود وهو متوفى ﷺ فقد قال: والله لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه[5] وفي أخرى أنه قال: ابن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه[6]، وقد علق الذهبي على أقوال الحجّاج في عبد الله بن مسعود ﷺ بقوله: قاتل الله الحجّاج ما أجرأه على الله، كيف يقول هذا في العبد الصالح عبد الله بن مسعود[7]، ومن تطاول على أصحاب رسول الله ﷺ وسوء أدبه معهم ما حدث منه لكل من أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ - وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد الساعدي ﷺ، فقد ورد أنه ختم على كل واحد منهم بختمه المشهور «عتيق الحجّاج» أنس وسهل في عنقيهما وجابر في يده[8]،

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 63) المعرفة والتاريخ للفسوي (2/ 574).
(2) صفة الصفوة (3/ 45).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 569.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 442).
(5) المستدرك على الصحيحين (3/ 641) تهذيب تاريخ دمشق (4/ 72).
(6) تهذيب تاريخ دمشق (4/ 72).
(7) تهذيب الكمال (12/ 188) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 575.
(8) تهذيب الكمال (12/ 188) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 575.

أما فعله ذلك بأنس فلأنه بايع ابن الزبير وتولى له البصرة، ولأنه كان يحرص على المشاركة مع ابن الأشعث، لذا ناله ما ناله من أذى الحجّاج، ولم ينقذه من إهانة الحجّاج إلا تدخل الخليفة عبد الملك حيث كتب كتاباً وبخ فيه الحجّاج على فعله بأنس وأمره بعدم التعرض له[1]، وأما سهل فقد ورد أن الحجّاج أرسل إليه يقول: ما منعك من نصر أمير المؤمنين عثمان؟ قال: قد فعلت. قال: كذبت ثم أمر به فختم في عنقه[2]. وهذه عقدة عند الحجّاج حيث كان متعصباً للأمويين أكثر من تعصبهم لأنفسهم، ففي الحين الذي نجد معاوية وعبد الملك تودودوا لكثير من الرجال الذين وقفوا ضدهم مع علي أو مع ابن الزبير وعفوا عما سلف منهم واستلوا بذلك ضغائن نفوسهم، نجد الحجاج يخالف هذا المنهج السديد فيصر على محاسبة الرجال على ما سالف منهم أيام الفتن، فأوغر صدور الكثير عليه وعلى بني أمية بهذا المسلك[3]، وأذكر مثال يوضح الفرق بين نظرة عبد الملك ونظرة الحجّاج للرجال وطريقة التعامل معهم، فقد كان محمد ابن الحنفية ممن امتنع عن مبايعة عبد الملك أو ابن الزبير حتى يجتمع المسلمين على واحد منهما، فلما تم قتل عبد الله بن الزبير بعث الحجّاج على الفور لابن الحنفية يسأله البيعة ويقول: قد قتل عدو الله، فقال ابن الحنفية: إذا بايع الناس بايعت. قال: والله لأقتلنك. ومع أن ابن الحنفية بايع لعبد الملك لما رأى اجتماع كلمة المسلمين عليه، إلا أن الحجّاج استمر في مضايقة ابن الحنيفة، فلما قدم على عبد الملك أكرمه عبد الملك وقضى كل حوائجه، ثم اشتكى إليه سوء معاملة الحجّاج له وكان حاضراً عند عبد الملك فقال: إن هذا - يعني الحجّاج - قد آذاني واستخف بحقي ولو كانت خمسة دراهم أرسل إلي فيها. فقال عبد الملك: لا إمرة لك عليه، وطلب منه أن يستل سخيمة ابن الحنيفة ويترضاه[4].

ب - **سوء معاملة الحجّاج ونظرته للعلماء:** وقد كان لتجاوزات الحجّاج وسوء تعامله مع أهل العلم والفضل في مكة والمدينة أثر في عزله عن الحجاز بعدما كثرت الشكوى منه عند عبد الملك، فلما تولى العراق استمر في سوء تعامله فوجد كثير من العلماء المضايقة والشدة منه، فضرب بعض العلماء في ولايته وسجن بعضهم ونفي بعض آخر، وقد يظن بعض الكتاب أن هذا الضرب والسجن بل والقتل للعلماء إنما حدث بعد فتنة ابن الأشعث فحسب فيكون تعامل الحجّاج هذا جاء ردة فعل على مشاركة العلماء في هذه الحركة، ولكن الأمر على غير هذا الظن، فقد حدثت بعض تلك المضايقات والمعاملة السيئة قبل حركة ابن الأشعث،

(1) المستدرك على الصحيحين (3/ 664) أثر العلماء، ص: 576.
(2) تهذيب الكمال (12/ 188).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 577.
(4) مختصر تاريخ دمشق (9/ 148) لابن منظور.

فمعاملته لابن عمر وجابر ﷺ كانت قبل ذلك حيث توفيا قبل حركة ابن الأشعث[1]، وقد تعدت مضايقة الحجّاج للعلماء للذين لم يشاركوا في هذه الحركة، ومن عهد عنهم النهي عن الخروج على الولاة ولا يرون استخدام السيف لتغيير المنكر، ومن هؤلاء الحسن البصري فقد اشتهر عنه النهي عن حمل السيف ومقاومة ظلم الولاة به، وعندما أكره على المشاركة في القتال تخلص وهرب من الصف، ومع ذلك فقد كان الحجّاج يطلبه وحاول قتله مراراً ولكن الله يعصمه منه[2]، حتى اضطر الحسن أن يختفي عن الحجّاج في منزل بعض أصحابه وهو أبو خليفة الحجّاج بن عتاب[3]، فكان أصحابه وطلابه يغشونه لمدارسته العلم والتلقي عنه في مكان تواريه[4]، ومن الذين لم يشاركوا في فتنة ابن الأشعث: إبراهيم النخعي، ومع ذلك فقد عاش مدة مختف عن الحجّاج والحجّاج يطلبه حتى كان لا يصلي جماعة مدة اختفائه مخافة من الحجّاج[5]، وكذلك شأن الإمام مجاهد بن جبر، فإنه كان ممن يطارده الخوف من ظلم الحجّاج حتى اضطر إلى التواري عنه[6].

ومن هذا العرض السابق يتضح مدى ما وصلت إليه تجاوزات الحجّاج الشرعية وطبيعة علاقته مع العلماء وعلاقة العلماء به، والجدير بالذكر أنه لم تصل علاقة العلماء بأي والٍ من ولاة الدولة الأموية في سوئها كما وصلت إليه علاقتهم مع الحجّاج، بل كانت علاقتهم مع ولاة الدولة في عمومها حسنة يعينونهم على الحق، ويجاهدون معهم ويأمرونهم بالمعروف ويبدون لهم النصح فيسمع منهم في كثير من الأحيان[7]، ومن كل ما سبق يتضح أنه كان للحجّاج الأثر الكبير في مشاركة العلماء في حركة ابن الأشعث، بل وفي قيام تلك الحركة من وجهين. الأول: أنه بأسلوب الشدة والقسوة أضرم نيران الحقد والكراهية في قلوب مختلف الفئات من الناس في العراق - بما فيهم العلماء - عليه وعلى بني أمية، والوجه الآخر: أنه كان سبباً مباشراً لإعطاء ابن الأشعث الفرصة في القيام بتلك الثورة، حيث جنده بكل ما يملك من جنود وسلاح ومال وهو يعلم ما بينهما من كره متبادل، وقد حذر من ذلك بأسلوبه المتعنت في التعامل مع ابن الأشعث وجنوده في رسائله التي تفوح بالحمق حيث ملأها بالشتائم لابن الأشعث، ولم يراع مصلحة الجنود كما لم يشعرهم بأهميتهم لديه، بل العكس في ذلك كأنما أراد بتصرفه معهم التخلص من حياتهم، وهذا يمثل ما وصل إليه غرور الحجّاج بنفسه[8].

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 578، 579.
(2) تاريخ الإسلام للذهبي، نقلاً عن أثر العلماء، ص: 580.
(3) كتاب المتوارين للأزدي، ص: 45.
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 581.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 521) أثر العلماء، ص: 581.
(6) المتوارين للأزدي، ص: 53.
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 583.
(8) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 586.

3 - معارضة بعض العلماء لثورة ابن الأشعث:

كان هناك عدد من العلماء عارضوها أو اعتزلوها ولم يروا المشاركة فيها، ومن أبرز هؤلاء: أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي[1]، فهو من الذين لم يشاركوا في هذه الثورة، وأبو قلابة الجرمي فلم يشارك وكان يعتب على غيره ممن شارك[2]، ومنهم إبراهيم النخعي، فلم يشارك وكان يعيب على سعيد بن جبير مشاركته فيها[3]، وقد قيل له: أين كنت يوم الزاوية؟ قال: في بيتي. قالوا: فأين كنت يوم الجماجم؟ قال: في بيتي. قالوا: فإن علقمة شهد صفين مع علي، فقال: بخ بخ من لنا مثل علي بن أبي طالب ورجاله[4]، وممن لم يشارك في حركة ابن الأشعث أيوب السختياني، فروي عنه أنه يقول في العلماء الذين خرجوا مع ابن الأشعث: لا أعلم أحداً منهم قتل إلا رغب له عن مصرعه، أو نجا إلا ندم على ما كان منه[5]، ومنهم طلق بن حبيب، فكان معتزلاً الفتنة وكان يقول: اتقوها بالتقوى[6]، ومنهم مطرف بن عبد الله الشخير فقد امتنع عن المشاركة في هذه الفتنة، وحين جاءه ناس يدعونه للمشاركة امتنع، فلما أكثروا عليه قال: أرأيتم هذا الذي تدعوني إليه، هل يزيد على أن يكون جهاداً في سبيل الله؟ قالوا: لا. قال: فإني لا أخاطر بين هلكة أقع فيها وبين فضل أصيبه[7]، ومنهم مجاهد بن جبر فإنه لم يشارك وحين دعي للمشاركة قال لمن دعاه: عده باباً من أبواب الخير تخلفت عنه[8]، ومنهم خيثمة بن عبد الرحمٰن الجعفي ومحمد بن سيرين، فقد ورد ذكرهما مع الذين لم يشاركوا في فتنة ابن الأشعث[9].

4 - موقف الحسن البصري من ثورة ابن الأشعث:

يعد الحسن البصري واحداً من أولئك العلماء الذين اعتزلوا القرب من الولاة والأمراء وابتعدوا عن المناصب ورغبوا عن وجاهتها، فقد كان ينهى العلماء عن طرق أبواب الأمراء والتزلف لهم، لأن في ذلك إهانة للعلم وحطًّا من قدر العلماء ومكانتهم[10]، وبقي الحسن معتزلاً القرب من الولاة بعيداً عن تولي مناصبهم حتى توفي رحمه الله. إلا أن ذلك لم يكن سبباً في انزوائه عما يجري في عصره من أحداث سياسية، بل كان علماً بارزاً يهتدي كثير من الناس بتوجيهاته المفيدة وآرائه السديدة، لاسيما في أوقات الفتن وفترات الخلاف، لذا قال فيه

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 482).
(2) المصدر نفسه (4/ 513).
(3) الطبقات(6/ 266) أثر العلماء، ص: 559.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 526).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 513).
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 601) الحلية (3/ 64).
(7) المعرفة والتاريخ للفسوي (1/ 711) أثر العلماء، ص: 560.
(8) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 561.
(9) المصدر نفسه، ص: 561.
(10) المصدر نفسه، ص: 338.

الثقات: كان والله الحسن من رؤوس العلماء في الفتن والدماء والفروج[1]، وكان ينحى في نصحه للعامة إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف وينهى عن الإثارة والفرقة، ويدعو إلى السمع والطاعة للولاة، وكان يرى وجوب الموازنة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووحدة الجماعة، ولقد عاصر الحسن البصري معظم فترات الحكم الأموي، وتأثر بالواقع السياسي في هذه الفترة، فأصبح يمثل مدرسة سياسية في عصره، فهو يرى أن حكم بني أمية فيه ظلم وجور، ولكنهم في نفس الوقت يملكون القوة العسكرية، وموازين القوى في صالحهم، كما أن الفتنة الراغبة في التغيير والشكاية من الظلم، ينقصها التنظيم والإعداد والقوة والصبر، ويرى أن الذين يحملون راية الخروج على حكم بني أمية إما مخلص لدينه ولكنه لا يصلح للحكم ولا يقدر على إحداث التغيير، وإما رجال يستخدمون الدين والدعوة للتغيير لأغراض دنيوية، منها حبهم للسلطة والحكم، فليسوا بأحسن حال من الأمويين[2]، وعلى ذلك أصبح موقفه من الحكم الأموي يقوم على أمور منها:

أ - عدم الخروج على حكم بني أمية لما في ذلك: من سفك الدماء، وتقويض لقوة المسلمين، وازدياد الجور والظلم[3]، فقد دخل عليه رجل فقال: يا أبا سعيد إني أريد أن أسألك عن الولاة، فقال الحسن: سل عما بدا لك. فقال: ما تقول في أئمتنا هؤلاء؟ فسكت الحسن ملياً ثم قال: وما عسى أن أقول فيهم وهم يلونا من أمورنا خمساً: الجمعة والجماعة، والفيء والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وإن ظلموا، والله ما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، والله إن طاعتهم لغبطة، وإن فرقتهم لكفر، فقال الرجل: يا أبا سعيد والله إني لذو مال كثير، وما يسرني أن يكون لي أمثاله وإني لم أسمع منك الذي سمعت فجزاك الله عن الدين وأهله خيراً، وحين سئل عن الحجّاج قال: يتلو كتاب الله ويعظ وعظ الأبرار ويطعم الطعام ويؤثر الصدق ويبطش بطش الجبارين. قالوا: فما ترى في القيام عليه؟ فقال: اتقوا الله، وتوبوا إليه يكفيكم جوره[4]. وكان إذا قيل له: ألا تخرج فتغير قال: إن الله إنما يغير بالتوبة ولا يغير بالسيف[5]. وكان يرى أن جور الحكام بسبب ما يحدثه الناس من ذنوب ومعاصي، وإن من أهم أسباب دفع الجور والظلم هو الرجوع إلى الله، وكان يحث الناس على تجنب الفتن والبعد عن أسباب إشعالها، وحين بلغ السخط على الحجّاج أوجه وثار عليه الناس مع ابن الأشعث وكان جملتهم عدد من العلماء، لزم الحسن موقفه من الفتن

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 575) وفيه زيادة لفظة: الفروج والمقصود بها الثغور.
(2) موسوعة فقه الحسن البصري، قلعجي (1/ 11).
(3) الفقهاء والخلفاء، ص: 78، 79.
(4) آداب الشيخ الحسن البصري لابن الجوزي، ص: 120، 121.
(5) الطبقات الكبرى (7/ 172).

فلم يخرج مع من خرج بل كان يكره ذلك وينهى الناس عنه، وكان أخوه سعيد ممن يرى الخروج على الحجّاج ويدعو له، فعن حماد بن زيد بن أبي التياح قال: شهدت الحسن وسعيد ابن أبي الحسن[1] حين أقبل ابن الأشعث، فكان الحسن ينهى عن الخروج على الحجّاج ويأمر بالكف وكان سعيد بن أبي الحسن يحضض، فقال سعيد فيما يقول: ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غداً؟ فقلنا: والله ما خلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه ولكنا نقمنا عليه استعمال الحجّاج فاعزله عنا، فلما فرغ سعيد من كلامه تكلم الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنه والله ما سلط الله عليكم الحجّاج إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ولكن عليكم السكينة والتضرع، وأما ما ذكرت من ظني بأهل الشام فإن ظني بهم أن لو جاؤوا فألقمهم الحجّاج دنياه لم يحملهم على أمر إلا ركبوه، هذا ظني بهم[2]، وقدم عليه جماعة من العلماء يناقشونه في الخروج مع ابن الأشعث على الحجّاج، ويحاولون إقناعه بالخروج، ولكنه رفض الخروج وقال: أرى أن لا تقاتلوه فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم، ولكنهم لم يسمعوا كلامه ولم يأخذوا برأيه فخرجوا مع ابن الأشعث فقتلوا جميعاً[3]، وعندما أفتى رجلاً بعدم جواز الخروج على الحجّاج قال له الرجل: لقد كنت أعرفك سيئ القول في الحجّاج غير راضٍ عن سيرته، فقال الحسن: وأيم الله إني اليوم لأسوأ فيه رأياً، وأكثر عتباً، وأشد ذماً ولكن لتعلم - عفاك الله - أن جور الملوك نقمة من نقم الله تعالى، ونقم الله لا تلاقى بالسيوف، وإنما تتقى وتستدفع بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب[4]، ولما توفي الحجّاج وجاء خبر وفاته الحسن سجد وقال: اللهم عقيرك وأنت قتلته فاقطع عنا سنته وأرحنا من سنته وأعماله الخبيثة[5]، وكان يوضح للناس حقيقة ما يعيشه بعض الولاة من تقلبه في عيش الفتنة بزخرف الحياة الفانية حتى لا يغتر بهم الناس فكان يقول: هؤلاء - يعني الملوك - وإن رقصت بهم الهماليج[6]، ووطئ الناس أعقابهم فإن ذل المعصية في قلوبهم، إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم، ومنعنا الخروج عليهم، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرتهم، فمن أراد به خيراً لزم ذلك وعمل به، ولم يخالفه[7]، وكان ينهى العامة عن القتال وحمل السلاح حين تقبل الفتن، فعن سلم بن أبي الذيال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال: يا أبا سعيد ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب ثم قال بيده فخطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا

---

(1) هو أخو الحسن البصري.
(2) الطبقات الكبرى (7/ 164).
(3) المصدر نفسه (7/ 164).
(4) آداب الحسن البصري لابن الجوزي، ص: 118.
(5) حلية الأولياء (2/ 159).
(6) الهماليج: من البراذين. الكلمة فارسية معربة.
(7) آداب الحسن البصري، ص: 121.

سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين[1]، فكان يرى أنه يجب على المسلم الاعتزال وعدم المشاركة في سفك دماء المسلمين، فلا يقاتل في صفوف الخارجين على السلطة، ولا مع جيش الخليفة، إذا كان ظالماً[2].

ب - وبالرغم من قوله بعدم الخروج على حكم بني أمية، إلا أنه كان يرى وجوب الإنكار عليهم لظلمهم، واستئثارهم بالأموال، وتوليتهم الولاة الظلمة، كأمثال الحجّاج، وكان شديد الانتقاد للحكم الأموي وخاصة سياسات الحجّاج في العراق، وكان يواجه الحجّاج بانتقاداته غير خائف من بطشه[3]، وعن ميمون بن مهران قال: بعث الحجّاج إلى الحسن وقد همّ به، فلما قام بين يديه قال: يا حجّاج، كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير قال: فأين هم؟ قال: ماتوا. قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن وقال أيوب السختياني: إن الحجّاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه[4]، وكان يحذر العلماء من مخالطة السلاطين والحكام لكي لا يوهموا المسلمين برضاهم عن حكمهم، ولكي يشعروا الحكام بعدم رضاهم عن سياساتهم الجائرة، وكان يرى أن في مخالطة العالم والمفتي للحاكم إذلالاً لمكانته العلمية والاجتماعية، وكان يقول لبعض الفقهاء ممن كانوا يخالطون الأمراء: والله لو أنكم زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم وهابوكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم[5]، ومع حرصه الشديد على عدم مخالطة الأمراء والحكام إلا أنه تولى القضاء في البصرة في عهد عمر ابن عبد العزيز[6]، نظراً لعدل وحسن سيرة عمر بن عبد العزيز[7]. إن منهج الحسن في التعامل مع الحكام منهج وسط معتدل، فهو مع نهيه عن الخروج على الولاة وكرهه للمواجهة معهم لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة من سفك الدماء، وتفريق الأمة، وتعطيل الجهاد.. إلخ. إلا أن ذلك لا يفهم منه تبريره لإخفاء الولاة أو عدم إنكارها، بل كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

5 - أسباب فشل ثورة ابن الأشعث:

أ - عدم تمكن العلماء من السيطرة على مسار تلك الحركة: وذلك حين تطور الأمر وخلع الثائرون الخليفة عبد الملك بن مروان، فلم يتمكن العلماء من إقناع الناس بالحفاظ على الهدف الذي قامت الثورة لأجله وهو خلع الحجّاج، بل ربما جر بعض العلماء إلى القناعة بهذا المسار الجديد، وتأكد فشل العلماء في عدم محافظتهم على الهدف الرئيس للحركة

(1) الطبقات (7/ 164).
(2) الفقهاء والخلفاء، ص: 79.
(3) موسوعة فقه الحسن البصري (1/ 13).
(4) البداية والنهاية (12/ 543، 544).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 586).
(6) الفقهاء والخلفاء، ص: 80، سير أعلام النبلاء (4/ 582).
(7) الفقهاء والخلفاء، ص: 80.

وذلك حينما عرض عبد الملك على الثائرين عزل الحجّاج، ولكن الزهو والعجب بما تحقق من انتصارات أدى إلى رفض ذلك العرض من الخليفة ولم يتمكن العلماء من إقناع الثائرين بقبوله، وبهذا الرفض.

ب - **تحكم أصحاب الدوافع الإقليمية والمذهبية في مسارها:** استطاع أصحاب الدوافع الإقليمية والميول المذهبية أن يسيروا بالحركة نحو التخلص من بني أمية.

ج - **عدم امتلاك الثورة لرؤية كاملة:** فقد أصبح العلماء يسيرون في طريق غير واضح المعالم، سوى تحقيق الانتصار على جيوش الأمويين، ولكن ماذا بعد؟ هل بالإمكان تغيير الخليفة بالانتصار على جيوش الأمويين في العراق، وهل يستسلم الشام بهذه السهولة، أو تقر الأقطار الإسلامية ذلك؟ وهل يكون ابن الأشعث هو الخليفة للمسلمين في حالة القضاء على عبد الملك، لقد دخلت الثورة في طريق شائك معقد بمجرد رفضها عرض الخليفة بعزل الحجّاج، واضطربت أهدافها مما أدى إلى وأدها وفشلها وانتصار جيوش الخليفة عليها[1].

د - **ذكاء الخليفة عبد الملك ودعمه المستمر بالجيوش للحجّاج:** فقد مال للصفح والمسالمة والمسامحة ولبى طلب أهل العراق في عزل الحجّاج من أجل حقن الدماء وتوفير الجهود والحفاظ على الجبهة الداخلية الواحدة المتراصة، وكان عرضه على ابن الأشعث في عزل الحجّاج كسب سياسي له حيث تبلبل صف ثورة ابن الأشعث واختلفت الآراء، وكان عبد الملك في نفس الوقت قد أعد جيشين من أهل الشام، وسلم القيادة لأقرب الناس إليه إلى أخيه وولده وأمرهما بالتقيد بأوامر والي العراق[2]، إن عدد العساكر المقاتلة والقادة وتزويدهم بكل ما يحتاجون ثم تكليفهم بالمفاوضة مع ابن الأشعث، منحت الثقة لابنه وأخيه، وهزت قرارة نفوس العراقيين، وهذا من رباطة جأش الخليفة، فكأنما قد قدّم جرعة كبيرة من الحرب النفسية، الأمر الذي أدخل الرهبة في نفس المفاوض الأول حتى مالت نفس ابن الأشعث للرضوخ لولا أصحابه، كما أكسبت الثقة للجنود الشاميين فكانوا يقاتلون ببسالة، ومن هنا يظهر دور الخليفة في كبح الحجّاج حيناً، وفي إعداد الجيش حيناً آخر، فلولاه لما كان بالإمكان القضاء على هذه الانتفاضة وبهذا القدر من الجهد، ويعود ذلك إلى السياسة المتجددة، القائمة على أصول من الفهم الكامل لخطط الخليفة البعيدة المدى، فقد كان رجل دولة من الطراز الأول يملك خطة مستقبلية لدولة قادرة على وضع أهدافها التكتيكية والاستراتيجية من أجل بناء دولة القوة والمنعة[3] على أسس راسخة من الملك العضوض،

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 587.
(2) تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك، ص: 132.
(3) تجديد الدولة الأموية، ص: 133.

هـ - القيادة لم تكن بيد العلماء وإنما بيد الأشعث.

و - عدم وجود تنظيم قوي يتحكم في توجيه الثوار وفق الأهداف المرسومة من القادة.

ز - شخصية ابن الأشعث وطبيعة جيشه:

لم تكن شخصية ابن الأشعث تملك الصفات القيادية من بعد نظر، وثاقب فكر، وتقدير للأمور، وثبات في المواقف، فقد وقع في شباك رتييل وباعه للحجّاج مقابل مصالحه وتحالف مع الكفّار ضد المسلمين، ولم يستطع أن يقود جيشه كما يريد بل انقاد لعواطف ومشاعر الجنود فأودت به إلى حتفه، كما أن جيشه لم يكن ينقصه عدد أو عدة، ولكن حماسهم خفّ بسبب طول انتظارهم، ولم تكن لهم طاعة قوية لرؤسائهم، بعكس أهل الشام الذين كانوا جنداً نظاميين بكل ما لهذه الكلمة من معاني[1]، وهذه أبيات من الشعر تصوّر حزنهم واعترافهم بأنهم لم يصبروا ويدافعوا حق المدافعة عن دنياهم التي أضاعوها بتفريطهم:

أيا لهفاً ويا حزناً جميعاً ... ويا حر الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً ... وأسلمنا الحلائل والبنينا
فما كنا أناساً أهل دين ... فنصبر في البلاء إذا ابتلينا
وما كنا أناساً أهل دنيا ... فنمنعها ولو لم نرجُ دينا
تركنا دورنا لطغام عَكٍّ ... وأنباط القرى والأشعَرينا[2]

6 - من نتائج فشل ثورة ابن الأشعث:

أ - ازدياد تسلط الحجّاج: ترتب على فشل نتائج ثورة ابن الأشعث نتائج خطيرة وسيئة، فقد زاد انتصار الحجّاج في النهاية على الثوار من تسلطه وتجبره، واشتد أكثر في تضييقه على العلماء فقتل من قتل منهم وسجن من سجن منهم وهرب من وجهه من استطاع[3].

ب - ندم الكثير من العلماء: وندم الكثير من العلماء المشاركين في ثورة ابن الأشعث، فهذا طلحة بن مصرف يقول: شهدت الجماجم، فما رميت، ولا طعنت، ولا ضربت، ولوددت أن هذه سقطت هنا ولم أكن شهدتها[4]، وعن محمد بن طلحة قال: رآني زبيد اليامي مع العلاء بن عبد الكريم ونحن نضحك فقال: لو شهدت الجماجم ما ضحكت ولوددت أن يدي - أو قال يميني - قطعت من العضد وأني لم أكن شهدت[5]، كما ندم عقبة بن عبد الغافر على مشاركته في القتال كذلك، وغيرهم من العلماء.

جـ - انتصار رأي العلماء القائلين بعدم الخروج: علت منزلة العلماء الذين اعتزلوا تلك

(1) تاريخ خلافة بني أمية، ص: 177.
(2) تاريخ الطبري (7/ 266).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 588.
(4) سير أعلام النبلاء (5/ 192).
(5) تاريخ خليفة، ص: 287.

الفتنة ولم يشاركوا فيها، فعن ابن عون قال: كان مسلم بن يسار أرفع عند أهل البصرة من الحسن حتى خف مع ابن الأشعث وكف الحسن، فلم يزل أبو سعيد - يعني الحسن - في علو منها[1]، وقد أسهمت حركة ابن الأشعث - بنهايتها بتلك الصور - في إقناع كثير ممن كان يرى استخدام القوة وحمل السيف لتغيير الجور والظلم الواقع من الولاة بعدم جدواها، ولذلك قال ابن تيمية عقب الحديث عن ما حدث من فتن وقعت باجتهاد من بعض أهل العلم والصلاح، كخروج الحسين بن علي ﷺ، وفتنة خروج أهل المدينة ووقعة الحرّة وفتنة ابن الأشعث قال: ولهذا استقر مذهب أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم[2]، وقال ابن حجر في ترجمة أحد هؤلاء الذين كانوا يرون السّيف: كان يرى الخروج بالسّيف على أئمة الجور، وهذا مذهب للسّلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك لما رأوه أفضى إلى أشدّ منه، ففي وقعة الحرّة ووقعة ابن الأشعث - يعني: دير الجماجم - وغيرها عظة لمن تدبر[3].

س - **ظهور بدعة الإرجاء**: أو نوع منه وهو ما يسمى(إرجاء الفقهاء نسبة إلى بعض الفقهاء الذين يقولون بأن الإيمان قول بلا عمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، فالإيمان عندهم واحد يستوي فيه كل من اعتقده بقلبه وقال بلسانه، حيث يخرجون الأعمال - التي يتفاضل فيها المؤمنون - عن الإيمان، فيستوي عندهم إيمان الصادقين الأولين كأبي بكر وعمر، وإيمان أفجر الناس كالحجّاج، وأبي مسلم الخراساني وغيرهما[4]، والذي دعا إلى الربط بين ظهور ذلك النوع من الإرجاء وحركة ابن الأشعث يشير إليه كثير من الذين كتبوا عن تاريخ الفرق حيث اشتهر عندهم قول قتادة: إنما أحدث الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث[5]، وذكروا أن الكوفة كانت موطن الإرجاء الأول ثم انتشر منها إلى سائر الأقطار[6] ويقول الدكتور ناصر العقل: أول ما ظهرت بدعة الإرجاء بعد فتنة ابن الأشعث سنة (83) [7]، وهو إرجاء العمل عن الإيمان ويسمى «إرجاء الفقهاء»، وأول من قال به هو: ذر بن عبد الله المرهبي الهمداني، (مات قبل المائة)[8] ثم ظهور القول بأن الإيمان قول، وأول من قال ذلك حماد بن أبي سليمان[9] (ت 120هـ) واستقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس كلها مخالفة لقول السلف وهي:

(1) الطبقات الكبرى (7/ 165).
(2) منهاج السنة (4/ 529، 530)، الإمامة العظمة، ص: 512.
(3) تهذيب التهذيب (2/ 250).
(4) الفتاوى (7/ 195).
(5) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (2/ 889).
(6) الفتاوى (7/ 311)، القدرية والمرجئة، للعقل، ص: 86، 116.
(7) السنة لعبد الله بن حنبل (1/ 309).
(8) السنة، لعبد الله (1/ 329).
(9) الفتاوى (7/ 297، 311).

- زعمهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان، وأن الإيمان هو التصديق.
- زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.
- زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان[1].

ويقال أن ذراً بن عبد الله المرهبي - وكان ممن شارك في فتنة ابن الأشعث - فبعد الهزيمة أصيب بردة فعل جعلته يتحول من تكفير الحجّاج وقتاله إلى اتجاه معاكس وهو الإرجاء الذي يسوي فيه أصحابه بين إيمان الحجّاج وإيمان غيره ولو كان من أعبد الناس وأتقاهم لله[2].

ويقول طاووس بن كيسان - متنقداً ذراً المرهبي ومن سلك مسلكه من الفقهاء: عجبت لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجّاج مؤمناً. قال الذهبي معلقاً على قول الطاووس: قلت: يشير إلى المرجئة منهم، الذين يقولون: هو مؤمن كامل الإيمان مع عسفه وسفكه الدماء وسبه الصحابة[3]، وهكذا دأب الفتن فإنها غالباً ما تفرز بعدها بعض التوجهات المنحرفة أو المواقف المتضاربة تجاه أمر معين، حيث لا يسلم من ذلك إلا من عصمه الله بنور الإيمان ورسوخ العلم جعلنا الله منهم[4].

7 - ممن عفا الحجاج عنهم الشعبي وأسيرين:

أمر الحجّاج بعد انتهاء دير الجماجم مناديه أن يقول: من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن، فكان الشعبي من الذين توجهوا إلى الري فذكره الحجّاج يوماً وسأل عنه فعلم بلحوقه بالري، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يأمره بإرسال الشعبي إليه فأرسله إليه فلما قدم على الحجّاج لقيه يزيد بن أبي مسلم - حاجب الحجّاج - وكان صديقاً للشعبي - فقال للشعبي: أشر علي. فقال يزيد: اعتذر ما استطعت، وقال الشعبي: وأشار بمثل ذلك إخواني ونصحائي، فلما دخلت على الحجّاج رأيت غير ما ذكروا لي، فسلمت عليه بالإمرة وقلت: أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله مردنا عليك وحرّضنا وجهدنا فما كنّا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا[5]. فقال الحجاج: أنت والله أحبّ إليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت يا شعبي، كيف وجدت الناس بعدنا؟ فقلت: أصلح اللهُ الأمير، اكتحلت بعدك السحر، واستوعرت الخباب، واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً. قال: انصرف يا

(1) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص: 248.
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 592.
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 44).
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 593.
(5) الكامل في التاريخ (3/ 165).

شعبي فانصرفت[1]، ولم يقتصر العفو على الشعبي لأنه فقيه أهل العراق فقد عفا عن أشخاص من عامة الناس لصدقهم فيروي أنه أتى بأسيرين، فأمر بقتلهما فقال أحدهما: إن لي عندك يداً، قال: ما هي قال: ذكر ابن الأشعث يوماً أمك بسوء فنهيته فقال الحجّاج: ومن يعلم ذلك؟ قال: هذا الأسير الآخر فسأله الحجّاج فصدقه فقال له الحجّاج: لم لم تفعل كما فعل؟ قال: ينفعني الصدق عندك؟ قال: نعم، قال: منعني البغض لك ولقومك. فقال الحجّاج: خلوا عن هذا لفعله وعن هذا لصدقه[2].

8 - توحيد الدولة والقضاء على الثورات الداخلية:

استطاع عبد الملك أن يقضي على كل الحركات الداخلية وقد ذكرت أهم هذه الثورات، كثورة الأزارقة، والصفرية، وابن الأشعث، وهناك حركات أخرى ذكرتها كتب التاريخ كحركة مطرف بن المغيرة بن شعبة، وعبد الله بن الجارود، وحركة الأزد في عمان، وفي نهاية المطاف تغلب عبد الملك عليها واحدة تلو الأخرى ووضع الأساليب المناسبة لتحقيق الأهداف المخططة لذلك، وقد أثبتت الأحداث قدرة الخليفة عبد الملك بن مروان على معرفة الأحداث معرفة جيدة، ثم السيطرة على هذه الأحداث والقدرة على احتوائها، باستئصال خصومه حيناً، والتسامح معهم حيناً آخر، ضمن خطة سياسية ومنهج قائم على أهداف واضحة، أدت إلى النتائج المتوخاة، وهي إعادة الوحدة السياسية مرّة أخرى، مما أدى إلى إيجاد علاقات جديدة مع الدولة البيزنطية، والقيام بفتوحات جديدة في الشرق والغرب ثم القيام بالعديد من الإصلاحات الجديدة، منحت سياسته الداخلية والخارجية قدرة على التخطيط الشامل الذي يؤدي إلى تحقيق الأهداف المنشودة[3].

المبحث الثالث

النظام الإداري في عهد عبد الملك

اهتم عبد الملك بن مروان اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة وسار على نهج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، وقد قام بتطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، وقام بتعريب الإدارة والنقد وهو ما يعرف بحركة التعريب، كما استعان بنخبة من أمهر رجال عصره في الإدارة والسياسة، فقد كرّس عبد الملك كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على سلامتها، حتى تركها قوية غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان[4]، وقد أعاد عبد

(1) الكامل في التاريخ (3/ 166).
(2) عيون الأخبار (1/ 98)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 292.
(3) تجديد الدولة الأموية 134.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 153.

الملك تنظيم الحكم الأموي على أسس جديدة واستفاد من سياسة معاوية ومن الأنظمة التي وضعها، ولكنّ نزعته للتفرد بالسلطان والحكم جعلته يخالف معاوية ﷺ في كثير من الأمور، فمعاوية كان يُشعر جلساءه وقواده وولاته على الأقطار أن لهم الحرية في النقد والقول والرأي، أما عبد الملك فلا يشعرهم بشيء من ذلك، فهم بين يديه ليسيروا على هواه وليقدم إليهم الأوامر فينفذوها، فما كان يسمح لجلسائه بأن يجتزئوا من سلطانه شيئاً، وقد نظم دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد ونظم وسائل الحكم تنظيماً جعله السيد المتفرد في دولته، ويبدو أن نظرته للنظام شملت النواحي الآتية:

- دواوين الدولة، فهي الأسلاك التي تدير دفة الحكم والأمة.
- الولاة، فهم الذين ينفذون سياسة الدولة ويضبطون الملك.
- البريد فهو الذي يوصل بين أطراف الدولة[1].

وتلك النظرة تشير إلى مبدأ في السيطرة، فالأمور المذكورة إنما هي أسلاك وخيوط في يده يحرك بها أجزاء خلافته وآلاتها ويستخدمها لسلطانه[2]، وإليك أهم معالم التطوير الإداري في عهد عبد الملك:

أولاً: الدواوين:

1 - ديوان الرسائل:

وقد تطور هذا الديوان كثيراً في عهد عبد الملك وازدادت أهميته بشكل واضح ولا سيما أثناء ولاية الحجاج للعراق، نظراً للمستجدات السياسية والعسكرية ووجود المتمردين والخارجين على الدولة، مما استوجب متابعة أخبارهم، فكان الخليفة عبد الملك يكتب للحجاج بشأنهم، مما كان باعثاً مهماً لازدهار ديوان الرسائل والكتابة، فكانت هذه الرسائل تصدر من الديوان بشكل مستمر إلى من يهمه الأمر لمعالجة أوضاع تلك الاضطرابات[3]، حيث أن الخليفة عبد الملك كان غالباً ما يلجأ إلى المكاتبات السياسية في محاولة منه أن يفت في عضد قادة الحركات - فقد راسل - وقبل اجتماع الأمة عليه - مصعب بن الزبير، وابن الأشتر[4]، كما كان يرسل التوجيهات الإدارية والعسكرية إلى ولاته وقادته، وكان من الطبيعي أن تزداد مراسلات الحجاج إلى ولاته وقادته ومراسلاتهم إليه كالمهلب بن أبي صفرة مثلاً[5]،

(1) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 229.
(2) الدولة الأموية، ص: 229.
(3) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 137.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 137.
(5) الأخبار الطوال، ص: 277. 280 نهاية الأرب (7/ 246، 247).

ويلاحظ كثرة التواقيع[1]، في مراسلات الخليفة عبد الملك مع الحجاج بن يوسف الثقفي والتي تؤكد أهمية ديوان الرسائل وتطوره، وتوضح في جانب منها طبيعة سياسة الخليفة الإدارية، فوقع مثلاً في كتاب أرسله إلى الحجاج: جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الطلب[2]، وجاء في كتاب للحجاج: ارفق بهم فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ومع الخرق ما تحب[3]، ونظراً لأهمية الرسائل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك الحجاج لم يستخدما في هذا الديوان إلا من هو موضع ثقة وأمانة وإخلاص كما اختير الكتاب الحاذقون الذين يجمعون بين الخبرة الإدارية وفي كتابة الرسائل وإجادة أسلوب المخاطبة، ومن أشهر من استخدمهم الخليفة عبد الملك، قبيصة بن ذؤيب، وبلغ من علو مكانته أنه كان يطلع على الكتب الواردة إلى الخليفة قبل أن يعرضها على الخليفة نفسه[4]. ومن كتابه المشهورين روح بن زنباع الجذامي، وكان روح هذا على جانب كبير من العلم والأمانة إذ كان يقول فيه عبد الملك: ما أعطي أحد ما أعطي أبو زرعة - وكانت كنيته - أعطي فقه الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام[5]، والحق أن عبد الملك سلسل الأمور في أعمال الدولة تسلسلاً دقيقاً ووضع في ديوان الرسائل موظفين عارفين، وعلى رأسهم مستشاره الخاص، يستشيره في الرسائل التي يرسلها إلى الأقطار والتي ترد منها[6].

2 - ديوان العطاء:

أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان أهمية العطاء وبدأ العطاء في عهده يرتبط بشكل واضح بالنواحي العسكرية والسياسية، ففي سنة 69 هـ ، خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير، فتخلف بعض من أهل الشام عن الخروج معه، فأخذ خمس أموالهم من عطاء سنة 70 هـ على الرغم من حبه العميق لهم[7]، كما كان عبد الملك يضطر أحياناً وتحت ضغط الظروف إلى زيادة العطاء أو إدخال أناس آخرين في الديوان، كما فعل حين تمرد الجراجمة في لبنان، إذ أعلن قائده سحيم بن المهاجر على لسان الخليفة: من أتانا من العبيد فهو حر ويثبت في الديوان، فانفض إليه خلق كثير[8]، كما استخدم سلاح زيادة العطاء أيضاً ضد عبد الله بن الزبير، حينما نادى الحجاج جنده قائلاً: يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك[9]،

(1) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 137.
(2) العقد الفريد (4/ 207).
(3) خاص الخاص للثعالبي، ص: 87.
(4) أنساب الأشراف للبلاذري (5/ 356).
(5) البيان والتبيين (2/ 77) الإصلاحات المالية، ص: 138.
(6) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 230.
(7) سراج الملوك للطرطوش، ص: 118.
(8) الكامل في التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية والإدارية، ص: 131.
(9) الإصلاحات المالية والإدارية، ص: 131.

وقد حدث تطور مهم لديوان الجند في عهد عبد الملك في العراق خاصة وذلك حينما بدأ الجند يتقاعسون عن الخروج لقتال الخوارج، فعين عبد الملك الحجاج على العراق، وأمره أن يعيد تنظيم ديوان الجند، وتنظيم العطاء فيه على أساس المقدرة والكفاءة، فأعاد الحجاج تنظيم ذلك على أسس دقيقة[1]، ثم أمر بإعطاء الناس عطاءهم والتوجه لجبهات القتال، وتوعد المتخلفين منهم بالموت[2]، كما لم يقبل إعفاء جندي من الخروج للقتال مقابل تركه عطاءه[3]، وقد استخدم الخليفة عبد الملك العطاء وسيلة للقضاء على الفتنة، فقد كتب يوماً إلى الحجاج، أن يصف له الفتنة فوصفها له: فكتب إليه عبد الملك: فإن أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة وأعطهم عطاء الفرقة[4]، وكان الحجاج يصرف العطاء بأكمله لجنده في أوقات الأزمات السياسية أو الاستعداد للقتال، كما فعل حينما أعطى الناس أعطياتهم كاملة عند تجهيز جيش الطواويس لقتال رتبيل[5]، ومن ناحية أخرى، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان كان يكرم من أسدى خدمة عسكرية للدولة أو أظهر بطولة وشجاعة في جبهات القتال، فقد كرّم موسى بن نصير حينما حرر إفريقية سنة 83هـ[6]، كما كرّم الحجاج المهلب بن أبي صفرة وأصحابه لجهودهم في القضاء على الخوارج الأزارقة، إذ: أحسن عطاياهم وزاد في أعطياتهم ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال هؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء[7]، وأما إدارة هذا الديوان، فكان من أشهر من تولاه للخليفة عبد الملك ابن مروان هو سرجون بن منصور الذي تولى ديواني الجند والخراج في دمشق[8]، ثم عزله الخليفة وعين بدله: سليمان بن سعد الخشني[9].

3 - ديوان الخراج:

كما ذكرنا قبل قليل، أن سرجون بن منصور كان قد تولى إدارة ديوان الخراج والجند على عهد الخليفة عبد الملك[10]، ثم عزله وعين بدله: سليمان بن سعد الخشني[11]، وكان يساعد

(1) العراق في عهد الحجاج، طه عبد الواحد، ص: 126، 127.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 132.
(3) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 132.
(4) مروج الذهب (3/ 126).
(5) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 132.
(6) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 132.
(7) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 133.
(8) الوزراء للجهشياري، ص: 40.
(9) الوزراء للجهشياري، ص: 45 نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 133.
(10) الوزراء للجهشياري، ص: 45 نقلاً عن الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 134.
(11) التنبيه للمسعود، ص: 273، الإصلاحات المالية، ص: 134.

صاحب الخراج عدد غير قليل من الكتّاب والموظفين، إذ كان بديوان خراج مصر حوالي أربعة وأربعين موظفاً[1]، ويبدو أن متولي الخراج كان يحصل على أموال طائلة من عمله، مثل «أثيناس» متولي الخراج في مصر على عهد عبد الملك، حيث كان واسع السلطات عظيم النفوذ[2]، وكان أشهر من تولى ديوان خراج العراق هو (زادان فروخ) [3] ثم صالح بن عبد الرحمن[4].

4 - ديوان الخاتم:

في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان تطور ديوان الخاتم فأصبح إدارة منظمة، كما نشأت في هذه الفترة دار للمحفوظات الحكومية في دمشق[5]، ومن المحتمل إن هذا الديوان لم يقتصر على العاصمة دمشق، بل ربما وجد في باقي الولايات خصوصاً بعد التنظيم الإداري الواسع الذي قام به الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك لكثرة المراسلات مع الولايات المختلفة وأهميتها السياسية ولا سيما مع العراق، وكان الخليفة عبد الملك لا يولي هذا الديوان إلا أوثق الناس عنده[6].

5 - ديوان الطراز:

يراد بالطراز في الأصل التطريز، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، لا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليه أشرطة من الكتابة، ثم اتسع مدلول الطراز، فأصبح يطلق على المصنع والمكان، الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات[7]، وفي العصر الأموي ارتفع المستوى المعاشي، فزادت عناية الناس بمظاهر الترف والأبهة، لذلك أنشأ الأمويون عدداً من المصانع عرفت بدور الطراز[8]، وقد اهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالطراز، فنظمت صناعته بشكل واسع وأصبح أساساً لما حدث من نهضة في صناعة النسيج وبخاصة زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك[9].

6 - ديوان البريد:

عندما تولى الخلافة عبد الملك طوّر الأجهزة التي تساعده على جمع المعلومات ولذلك اعتنى بشكل كبير بالبريد بوصفه وسيلة مهمة من وسائل ضبط دولته وانتظام أمورها، فطوّره ونظمه وأرسى قواعده[10]، فلم يعد وسيلة لنقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايات

(1) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 135.
(2) المصدر نفسه، ص: 135.
(3) المصدر نفسه، ص: 135.
(4) المصدر نفسه، ص: 135 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(5) الإدارة العربية، ص: 69 للحسيني.
(6) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 41.
(7) المصدر نفسه، ص: 156.
(8) المدخل، ناجي معروف، ص: 115.
(9) النسيج الإسلامي، ص: 25 سعاد ماهر.
(10) الأوائل للعسكري، ص: 191.

وبطريقة تبادل الخيل وحسب، بل أصبح وسيلة مهمة في العمليات العسكرية، ونقل الأشخاص المهمين والمواد المختلفة، باستخدام الرحلات السريعة والمنظمة، كما أصبح عيناً للخليفة في نقل أخبار الإقليم والعمال وشكاوي الناس من عمالهم وموظفي الدولة هناك، ومن أجل تسهيل عمل البريد وانتظامه وسرعته، قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتنظيم طرق البريد، وتحديدها وتثبيتها، فقام ببناء الأميال في الطرقات[1]، كعلامات دلالة للطرق وتحديد مسافاتها، ومما يؤكد ذلك، ما وصل إلينا من نقوش معاصرة للخليفة عبد الملك، كشفت بالقرب من بيت المقدس تشير إلى أوامره بعمل هذه الأميال[2]، فقد بذل الخليفة عبد الملك عناية فائقة في تنظيم الطرق وصيانتها، فأصبحت تخترق الدولة طرق عديدة أقيمت على طولها محطات للبريد[3]، وقد أفاد الخليفة عبد الملك فائدة كبيرة من البريد خصوصاً في الجوانب العسكرية، سواء كان ذلك بإرسال الجند، والإمدادات والأوامر إلى قادة جنده، أو في نقل أخبار المعارك والتحركات العسكرية إليه[4].

وإدراكاً من الخليفة عبد الملك لأهمية البريد وكسباً للوقت فقد جعل على هذا الديوان أخص خاصته وهو قبيصة بن ذؤيب: وأمر بألا يحجب أي ساعة جاء من ليل أو نهار[5]، وتأكيداً لذلك فقد منع عبد الملك حاجبه أن يحجب صاحب البريد، قائلاً له: وليتك ما خلف بابي إلا أربعة. . . والبريد متى جاء من ليل أو نهار فلا يحجب، وربما أفسد على القوم تدبير ستهم[6] حبسهم البريد ساعة[7]، ونتيجة ذلك أن انتظم البريد وأصبح الخليفة يطلع بشكل يومي على تفاصيل الأحداث[8]، وقد استخدم البريد في عصر عبد الملك أيضاً في حمل الأشخاص ومن مختلف المستويات كالولاة والكتاب والشعراء وغيرهم، كما حمل كتب التأييد والرضا عن الخليفة من الأشخاص المهمين[9]، وكان الحجّاج هو أيضاً دائم الصلة بقواده في جبهات القتال، ويسمع أخبارهم بواسطة البريد، فكانت كتب الحجّاج ترد على محمد بن القاسم الثقفي، وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به في كل ثلاث أيام[10]، ووصول الكتب بهذه السرعة يدل على التنظيم الرائع للبريد[11].

ومن وسائل الاتصال والمخابرة الجديدة التي استخدمها الحجّاج في الأحوال العسكرية خاصة لإيصال الأخبار بين واسط وقزوين بسرعة: هو بناء المناظر والمنائر التي توضع على

(1) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 145.
(2) المصدر نفسه، ص: 145.
(3) تاريخ القدس للعارف، ص: 52.
(4) الإصلاحات المالية، ص: 146.
(5) الطبقات (5/ 176)، (5/ 234).
(6) ستهم : طريقتهم.
(7) الأوائل، ص: 191، الإصلاحات المالية، ص: 147.
(8) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 147.
(9) الأخبار الطوال، ص: 324، الإصلاحات المالية، ص: 148.
(10) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 424.
(11) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 148.

المرتفعات العالية حيث تنقل الإشارات بواسطتها عن طريق إشعال النار أو الدخان، فيصل الخبر بسرعة عن طريق انتقاله من منظرة لأخرى وقد وضح ياقوت الحموي ذلك بقوله: . . وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً، وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً وتجرد الخيل إليه، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط[1]، ويبدو أن ما كان ينفقه عبد الملك على إدارة البريد لم يكن قليلاً لاسيما أنه قد بذل جهوداً كبيرة لتطويره وتنظيمه[2]، ويمكن القول بأن الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من عمل ديوان البريد مؤسسة إدارية منظمة مستقلة، وهذا لا يعني عدم وجود البريد المنتظم في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، إلا أنه لم يكن ديواناً متكاملاً مستقلاً، خصوصاً أن مصادرنا التاريخية لا تذكر البريد بوصفه ديواناً إلا في عهد عبد الملك بن مروان[3]، فالبريد في نظر عبد الملك عصب الدولة الحساس ولذلك أقام له المحطات وفتح له المسالك ونظم مواعيده[4].

ثانياً: تعريب الدواوين وأسبابه والنتائج التي ترتبت عليه:

جاءت عملية تعريب الدواوين ضمن الخطة المرسومة لسياسة الدولة الإصلاحية التي بدأها الخليفة عبد الملك بن مروان وأكملها الخلفاء الذين جاءوا من بعده، والتي تضمنت نقل الدواوين من اللغات الأجنبية: الفارسية، واليونانية، والقبطية إلى اللغة العربية لإزالة النفوذ الأجنبي من مؤسسات الدولة الإدارية والمالية، وعملية التعريب التي ابتدأها عبد الملك تعتبر من الأحداث العظيمة والجليلة التي قام بها عبد الملك وفق خطة شاملة، **وكان لتعريب المؤسسات الإدارية (الدواوين) أسباب كثيرة منها:**

1 - إن دخول شعوب وأقوام مختلفة اللغات والديانات إلى الإسلام يعني حاجة هؤلاء الماسة إلى التفقه بالدين وقراءة القرآن الكريم، مما شدد الصراع بين اللغة العربية واللغات الأخرى، ومن ثم إلى شيوع اللحن، لذلك اعتنى عبد الملك ووالية الحجّاج بن يوسف بضبط قراءة القرآن، عن طريق تمييز الحروف المتشابهة بوضع النقط عليها[5] لذلك كان التعريب ضرورة ملحة، وكان الحرص على سلامة اللغة العربية من العوامل المهمة التي أدت إلى تعريب الدواوين في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان[6].

2 - كان الخليفة عبد الملك يهدف وراء التعريب إلى تحقيق وحدة الدولة وتماسكها، إذ أن اختلاف لغات الدواوين يكرّس اختلاف النظم المالية والإدارية، ويعيق عملية تنظيم وتوحيد إدارة الدولة، كما أن تعريب الدواوين يعني إنهاء التأثيرات الشعوبية والعنصرية مما يؤكد سيادة الدولة سياسياً على البلاد المفتوحة.

---

(1) معجم البلدان (5/ 350).
(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 149.
(3) المصدر نفسه، ص: 149.
(4) الدولة الأموية، العشي، ص: 236.
(5) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 169.
(6) المصدر نفسه، ص: 169.

3 – إن استعمال اللغات الأجنبية في الدواوين يعني بقاء هذه اللغات حية وكأنها رسمية، فيتعلمها الناس لحاجة الدولة إليها لكونها طريقاً لتولي الوظائف الكبيرة، وينتج عن ذلك استمرار منافسة هذه اللغات اللغة العربية مما يضعف من شأنها، ويضعف كيان الدولة الأموية، ولذلك كان التعريب جزءاً من سياسة عبد الملك بن مروان الهادفة إلى إعادة تنظيم جهاز الدولة الإداري وتحقيق شخصية الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبي[1].

4 – كان للعوامل الاقتصادية أثراً مهماً في تعريب الدواوين، فقد كان متولي هذه الدواوين يحصلون على أموال طائلة من عملهم هذا، لذلك كان تعريب دواوين الخراج خطوة أولى باتجاه إعادة تنظيم طريقة جباية الضرائب في الأقاليم، وبذلك يمكن ضبط أعمال تلك الدواوين والإشراف بدقة عليها، فيمنع الغش والتزوير، أي أن تعريب الدواوين هو جزء من خطة الإصلاح المالي الذي كانت الدولة بحاجة شديدة إليه إذ ذاك[2]، ولاسيما في العراق أهم أقاليم الدولة الأموية اقتصادياً، حيث حاول الحجّاج بن يوسف الثقفي معالجة الأوضاع الاقتصادية وذلك بالسيطرة على الشؤون الإدارية عن طريق السيطرة على سجلات الدواوين المالية[3]، هذه هي أهم الأسباب التي دعت عبد الملك إلى أن يعرّب الدواوين.

★ نتائج تعريب الدواوين:

حققت حركة تعريب الدواوين على يد الخليفة عبد الملك بن مروان نتائج ذات آثار عظيمة في جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية واللغوية ما زالت نتائجها شاخصة للعيان حتى اليوم، ويمكن تحديد نتائج حركة التعريب بما يأتي:

1 – تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعزيز مكانتها، وانتصارها على اللغات الأجنبية في الدولة، كالفارسية واليونانية، والقبطية، إذ أصبحت لغة الدين الإسلامي لغة السياسة والدين والعلم، وأصبحت مادة التفاهم اليومي في كل أنحاء الدولة، فانتشرت الثقافة العربية التي طغت على الثقافات الأخرى، وتفاعلت معها وأذابتها وحلت محلها، إذ اعتبر التعريب من الأحداث الكبيرة والإنجازات الضخمة في المجال الثقافي والسياسي، وقد تمّ وفق خطة مدروسة.

2 – ظهور فئة مهمة من الكتاب العرب أو الموالي حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم في إدارة الدواوين، إذ كان لصالح بن عبد الرحمن مهمة كبيرة في ذلك، حيث يقول عبد الحميد ابن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: لله در صالح ما أعظم منّته

(1) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية 168. (3) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه.

على الكتّاب[1]، وبذلك كان عامّة كتاب العراق تلامذة صالح، ومن هؤلاء: قحذم بن أبي سليم وشيبة بن أيمن، والمغيرة وسعيد ابنا عطية ومروان بن إياس[2].

3 - ظهور حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، وظهر من اهتم بالترجمة، مثل خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى 85هـ فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية[3].

5 - كان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية[4]، كما أن أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي ما زالت إلى وقتنا الحاضر عربية ثمرة لجهود عبد الملك[5]، فاللغة العربية هي الأداة التي جعلت مجتمع العرب يتسع رويداً رويداً حتى صارت حدوده تمتد من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً[6].

6 - تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب أي أسهم ذلك في نجاح الدولة بخطه الإصلاحي.

7 - اتجه الموالي لتعلم اللغة العربية لكونها الطريق التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العالية، كما أدى من جهة أخرى إلى إشاعة اللحن في اللغة، مما دعا الحجّاج إلى معالجة ذلك، ثم اندفع الموالي للتخلص من اللحن والخطأ وتعلم النحو ودراسته، فحدثت نهضة لغوية واسعة، وهذا يفسر لنا ظهور علماء كبار من الموالي في العصر الأموي ثم العصر العباسي.

8 - إيجاد نظام إداري موحد وشامل، وللدلالة على حسن هذا النظام أن اتخذه العباسيون، فقد كانت الإدارة عندهم تطوراً للإدارة عند الأمويين[7]، هذه هي أهم نتائج حركة التعريب التي قام بها عبد الملك بن مروان.

ثالثاً: إدارة الأقاليم في عهد الخليفة عبد الملك:

عندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (73 - 86هـ) قام بتنظيم دواوين الدولة ومؤسساتها، كما قام بتنظيم إدارة الأقاليم وأعاد النظر في تقسيمها وترتيبها، آخذاً بنظرة تغير

(1) الفهرست لابن النديم، ص: 303.
(2) الوزراء والكتاب للجهشياري، ص: 39.
(3) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية 179.
(4) عبد الملك بن مروان للريس، ص: 286.
(5) التاريخ السياسي (2/ 162) عبد المنعم ماجد.
(6) الحضارة الإسلامية، ص: 15، عبد المنعم ماجد.
(7) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 180.

الحياة وتطورها بمختلف أوجهها، وكانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدة أقاليم، ويرأس كل إقليم أمير، يكون تعيينه وعزله من الخليفة، ويملك هذا الأمير سلطات واسعة في إدارة إقليمه، فهو الذي يعين العمال على الولايات والمدن التابعة لإقليمه، كما يعين الموظفين أيضاً، وهو المسؤول عن تنظيم الجند، وتجهيز الحملات العسكرية، وغالباً ما يقودها بنفسه أو ينيب عنه قائداً لذلك، وكان له الإشراف على سك النقود أيضاً، وكان بجانب الأمير[1] موظف له أهمية كبيرة هو صاحب الخراج، فالوالي يدير الشؤون السياسية للولاية، وعامل الخراج يتولى إدارة الشؤون المالية، ويكون صاحب الخراج بمثابة الرقيب على الوالي، ويعين صاحب الخراج هذا من الخليفة، وقد تحصل مواجهة تصادم بين الوالي وصاحب الخراج، وكذلك كان يساعد الأمير في عمله عدد من الموظفين منهم القاضي، وصاحب الشرطة، ورئيس الحرس، والكاتب والحاجب[2]، وقد بلغت الدولة الإسلامية في العهد الأموي أقصى اتساعها وكانت مقسمة إدارياً في عهد عبد الملك إلى أقاليم كبرى هي:

1 - بلاد الشام العاصمة للدولة:

وكانت بلاد الشام في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان قد استقرت إدارياً إلى خمسة أجناد وهي: جند دمشق، وحاضرتها دمشق، وجند حمص وحاضرتها حمص، ومن مدنها تدمر، وجند قنسرين، وحاضرتها قنسرين، ومن مدنها حلب ومرعش، وجند فلسطين، وحاضرتها اللد، ومن مدنها تبوك، وجند الأردن، وحاضرتها طبرية، ومن مدنها عكا[3]، وكان لنظام الأجناد هذه أهمية إدارية وعسكرية كبيرة، إذ كان من أهم أسباب قوة الدولة الأموية، فقد كان الجند مستعدون دوماً للقضاء على أعداء الدولة في الداخل، والخارج[4]، ولم يعين عبد الملك والياً خاصاً على بلاد الشام، لأنها كانت تحت إشرافه المباشر، إلا أنه عين على الأجناد ولاة خاصين بها، وكان جند دمشق يقع تحت إدارة عبد الملك مباشرة بوصفها حاضرة الدولة الأموية[5].

---

(1) كان حكام الأقاليم يسمون في أول الأمر: عمالاً ثم استعملت فيما بعد كلمة والي، ثم أطلقت عليهم كذلك كلمة أمير، وتطور هذا اللفظ على هذا النحو: عامل فوالي، فأمير، يدل على أن سلطة هؤلاء الحكام بدأت محدودة ثم أخذت تتسع حتى أصبحت سلطاتهم عظيمة، فالعامل لم يكن مطلق السلطة، والوالي كان نفوذه واسعاً، والأمير كان نفوذه أوسع.

(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 184.

(3) المسالك والممالك، ص: 43، معجم البلدان (2/ 170).

(4) الوليد بن عبد الملك للكاشف، ص: 50، 51.

(5) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 186.

2 - إدارة الحجاز وأواسط الجزيرة العربية واليمن:

أ - الحجاز: في سنة 73هـ، حدث تطور إداري مهم، إذ جمع الخليفة عبد الملك أعمال الحجاز واليمن للحجّاج بن يوسف الثقفي[1]، فكان الحجّاج يستخلف على المدينة إذا أتى مكة عبد الله بن قيس بن مخرمة الذي ولاه قضاء المدينة، وقد أدرك عبد الملك أهمية الحجاز المعنوية والمؤثرة فانتهج لذلك سياسة حكيمة، فقد أحسن إلى الناس واستجاب لطلبهم في عزل الحجّاج عن الحجاز، أدت بالتالي هذه السياسة إلى نجاحه في الحصول على بيعة كبار أهله، وفي سنة 75هـ نقل عبد الملك بن مروان الحجّاج من الحجاز وولاه العراق[2]، ثم ولى الخليفة عبد الملك بعد ذلك على المدينة عمه يحيى بن الحكم بن أبي العاص ثم عين أبان بن عثمان سنة 76هـ، وفي عام 82هـ عزل الخليفة أبان بن عثمان عن ولايته المدينة وقبل سنة 83هـ وولى مكانه هاشم بن إسماعيل المخزومي[3]، فبقي في منصبه حتى وفاة الخليفة عبد الملك[4]، ومن الجدير بالملاحظة أن الولاة الذين عينهم الخليفة عبد الملك بن مروان على المدينة إما من أفراد الأسرة الأموية، أو ممن لهم صلة عائلية بالأسرة مثل هشام بن إسماعيل المخزومي، ويبدو أن هذا الاختيار كان الهدف منه ضمان الولاء والإخلاص التامين للخليفة، لاسيما أن المدينة كانت من مراكز المعارضة القوية للأمويين[5].

ب - مكة: بعد مقتل ابن الزبير ولى الخليفة ابنه مسلمة بن عبد الملك والياً عليها، وفي السنة نفسها جمع عبد الملك الحجاز وأعماله واليمن للحجّاج حتى سنة 75هـ، ثم ولى مكانه الحارث بن خالد المخزومي[6]، ولا بد من القول أنه تعاقب على مكة ولاة تختلف المصادر في تسميتهم وسني حكمهم، وربما يرجع ذلك إلى كثرة عددهم من جهة، وإلى قصر فترة ولاية بعضهم من جهة أخرى[7]، وكان عبد الملك يعتني بتعمير الكعبة والمحافظة على سلامتها وكان يبعث إليها بالهدايا والديباج كل سنة[8].

ج - أواسط الجزيرة العربية: كانت أهم مناطقها اليمامة، وكانت اليمامة منذ سنة 65 هـ مقراً لنجدة الحنفي زعيم فرقة النجدات الخارجية[9]، والذي بدأ تحركاته العسكرية منطلقاً من اليمامة حتى تمكن من تأسيس دولة النجدات في اليمامة والبحرين، وقد حاول عبد الملك

---

(1) أخبار مكة (2/ 174) الإصلاحات المالية، ص: 199.
(2) تاريخ، الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 202.
(3) الطبقات (5/ 152).
(4) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 204.
(5) المصدر نفسه، ص: 204.
(6) أخبار مكة (2/ 171).
(7) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 207.
(8) الأوائل، ص: 204.
(9) الملل والنحل للشهرستاني (1/ 193) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 208.

استخدام الأساليب الدبلوماسية مع نجدة، إذ وعده أن يوليه على اليمامة مقابل الدخول في طاعته[1]، فكان هذا أحد أسباب انشقاق النجدات بعد ذلك، إلا أن اليمامة ظلت خارج سيطرة الدولة الأموية حتى تمكن الخليفة عبد الملك من القضاء على دولة النجدات في اليمامة والبحرين سنة 73هـ[2]، فولى عبد الملك يزيد بن هبيرة المحاربي ثم عزله وولى مكانه إبراهيم ابن عربي ويقي الأخير إلى أن مات عبد الملك[3].

د - **اليمن**: وفي عهد عبد الملك بن مروان أصبح لليمن وال واحد بعد أن كانت مقسمة إلى عدة عمال في الحقب السابقة[4]، ومن أشهر ولاة عبد الملك على اليمن: محمد بن يوسف الثقفي وهو أخو الحجّاج بن يوسف، وظل محمد على ولاية اليمن إلى ما بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان[5]، ومحمد بن يوسف لم يحسن السيرة مع أهل اليمن كما أنه زاد ضريبة الخراج على الأراضي الزراعية[6].

3 - إدارة العراق والمشرق الإسلامي:

أ - **العراق**: وجه الخليفة كل اهتمامه نحو العراق واستطاع أن ينتزع الحكم من مصعب بن الزبير، سنة 72هـ وبايعه أهل الكوفة، وأحسن إلى زعمائها وولى عليها أخاه بشر بن مروان وأمره باللين لأهل الطاعة والشدة على أهل المعصية[7]، وفرق العمال على المدن، أما البصرة فقد ولّى عليها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد[8] الذي فشل في قتال الخوارج في البحرين والعراق، فعزله عبد الملك، وجمع العراق لبشر بن مروان فقدم البصرة سنة 74هـ، واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث المخزومي، فأقام بشر بالبصرة شهراً ثم مات[9]، ثم أسند عبد الملك ولاية العراق إلى الحجّاج إلى أن مات الخليفة عبد الملك[10].

ب - **الولايات التابعة للعراق في شرق الجزيرة العربية**: كانت الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة العربية، والمطلة على بحر الخليج، تابعة إدارياً في العصر الأموي إلى أمير العراق،

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 208.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 208.
(3) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 208.
(4) المصدر نفسه ص، 209.
(5) تاريخ اليمن، ص: 17، ابن عبد المجيد اليماني.
(6) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 84.
(7) أنساب الأشراف (5/ 354) الإصلاحات المالية، ص: 211.
(8) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 211.
(9) الفتوح لابن أعثم نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 212.
(10) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 213.

وهو الذي يعين عليها ولاة، يتولون إدارتها، وأهم هذه الأقاليم هي: البحرين، وعمان، وتشمل البحرين الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربي، بين البصرة وعمان فهو يشمل ما نعده اليوم: الكويت والإحساء وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة قديماً باسم« أوال» [1]، ودولة الإمارات العربية المتحدة[2].

جـ- **خراسان والمشرق الإسلامي:** بعد أن تمكن عبد الملك من قتل مصعب وضم العراق عام 72هـ، بدأ يخطط لاسترجاع خراسان ونجح في ذلك،وفي عام 78هـ ضم عبد الملك ولاية خراسان، وسجستان وكل المشرق الإسلامي إلى ولاية العراق للحجّاج بن يوسف، فولى الحجّاج على خراسان «المهلب بن أبي صفرة» سنة 79هـ[3]، ويبدو أن نجاح الدولة في القضاء على كل منافسيها في الداخل، وجه الاهتمام بجهاد العدو في الثغور، فكانت خراسان بحاجة إلى رجل عسكري قوي كالمهلب يمكن أن يحقق أهداف حركة الجهاد هناك، ومما يؤكد ذلك بقاء المهلب في ولايته حتى وفاته، كما يمكن اعتبار هذا التعيين بمثابة تكريم لجهوده في القضاء على الخوارج الأزارقة. وفي ولاية المهلب هذه نشطت حركة الفتوحات وسيأتي الحديث عنها عند كلامنا عن الفتوحات في عهد عبد الملك، وعين الحجّاج على سجستان عبيد الله بن أبي بكرة وذلك سنة 78هـ[4]، وكتب عبد الملك إلى الحجّاج: لا تستعمل عبيد الله بن أبي بكرة على الخراج والجباية فإنه أريحي[5]، وهذا يعني أن الحجّاج أصبح هو الذي يعين الولاة على الأقاليم التابعة لولايته كخراسان وسجستان في الغالب، وهي جزء من سياسة عبد الملك في الاتجاه نحو اللامركزية الإدارية[6].

4 - إدارة الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان:

تقع الجزيرة الفراتية بين نهري دجلة والفرات، وتشمل على ديار ربيعة وديار مضر، وديار بكر، وتمتد على نهر الفرات من شمال ملقية بمسيرة يومين شمالاً إلى الأنبار جنوباً، وعلى دجلة من تكريت جنوباً إلى شمال جزيرة ابن عمر شمالاً[7]، وتقع أرمينيا وأذربيجان إلى الشرق والشمال الشرقي للجزيرة الفراتية[8]، وكانت الموصل في عهد عبد الملك جزءاً من

(1) البحرين في صدر الإسلام، ص: 221.
(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 221.
(3) تاريخ اليعقوبي (3/ 17) الإصلاحات المالية، ص: 227.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 230.
(5) أنساب الأشراف (1/ 499، 505).
(6) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 230.
(7) المسالك والممالك، ص: 52، صورة الأرض لابن حوقل (1/ 208).
(8) بلدان الخلافة الشرقية، ص: 114.

ولاية الجزيرة الفراتية[1]، وقد أدرك عبد الملك أهمية الجزيرة هذه فعمل جاهداً على تنظيمها لتقف بمواجهة الخزر والبيزنطيين أعداء الدولة، فشجع على استيطان العرب هناك وأقطعهم الأراضي[2]، أمر بنقل بعض القبائل القيسية إلى هناك[3]، كما نقل بعضاً من قبائل الأزد وربيعة من البصرة إلى الموصل وحديثة[4]، كما نظم الإدارة فيها، حيث فصلها عن قنسرين وجعلها - فضلاً عن أرمينيا وأذربيجان - إقليماً إدارياً مستقلاً[5]، ولأهميتها فقد عين على إدارتها أخاه محمد بن مروان سنة 73هـ والذي يعتبر من أقدر الولاة الأمويين، وأوكل عليها مهمة مقاتلة الأعداء من البيزنطيين والخزر، والقيام بفتح المناطق المحادة للجزيرة[6]، وكانت هذه الولايات: الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، فضلاً عن الموصل غالباً ما تجمع تحت إمرة أمير واحد، ولاسيما في عهد عبد الملك بن مروان، ويبدو أن محمد بن مروان هو الذي كان يعين الولاة على أرمينيا[7]، أما الموصل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان هو الذي كان يعين ولاتها في الغالب[8].

5 - إدارة مصر:

كان والي عبد الملك على مصر أخوه عبد العزيز، وقد أوصى عبد الملك أخاه حين ولاه مصر بوصية تنم عن عقلية كبيرة حيث بيّن له الأسس الناجحة لإدارة ولايته وكيفية اختيار موظفيه، قائلاً له: ابسط بشرك وألف كنفك وآثر الرفق في الأمور فإنه أبلغ بك، وانظر حاجبك، فليكن من خير أهلك.. وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام.. وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فإنها تفتح مغاليق الأمور، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته[9]، ولم تقتصر مسؤولية عبد العزيز الإدارية على مصر فقط بل امتدت إلى إفريقية أيضاً، فهو المسؤول عن إدارة إفريقية، فقد كان يعين عليها الولاة ويعزلهم في بعض الأحيان، كما فعل حين عزل حسان بن النعمان سنة 78هـ وولى مكانه موسى بن نصير[10]، فأقرّ عبد

(1) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 327.
(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 233.
(3) المصدر نفسه، ص: 233.
(4) الروض المعطار، ص: 190، تاريخ اليعقوبي (3/ 17).
(5) معجم البلدان (1/ 103).
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 234.
(7) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 334.
(8) فتوح البلدان، ص: 328، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 234.
(9) الفخري في الآداب، ص: 126.
(10) ولاة مصر، ص: 74، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 239.

الملك هذا التعيين، وقد توفي عبد العزيز عام 86هـ ودامت ولايته على مصر أكثر من عشرين عاماً[1].

6 - إدارة إفريقية:

كانت أوضاع افريقية الإدارية والسياسية قبل تولي عبد الملك الخلافة مضطربة، نتيجة عدم استقرار الأحوال السياسية في الحجاز والعراق خاصة، فارتد عن الإسلام قسم من البربر في أفريقية[2]، كما تمكن كسيلة ومن معه من البربر والروم من دخول القيروان، فسيطر كسيلة على شمال أفريقية[3]، واستطاع عبد الملك أن يبسط نفوذ الدولة الأموية على شمال أفريقيا بعد أن تخلص من الصراعات الداخلية ومن أشهر ولاة أفريقية في عهد عبد الملك: حسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، وسيأتي الحديث عنهم بإذن الله تعالى في الفتوحات في عهد عبد الملك.

رابعاً: الخطوط العامة لسياسة الخليفة عبد الملك في إدارة شؤون الدولة:

1 - المشاورة:

كان يعتمد على المشاورة في إنجاز مهمات الدولة، وبخاصة في الأمور المهمة، فهو القائل: المشاورة تفتح مغاليق الأمور[4]، فقد استشار أصحابه في المسير إلى مصعب بن الزبير في العراق[5]، كما قبل مشورة روح بن زنباع: بتولية الشعبي قضاء البصرة، حينما استشار الخليفة أصحابه بذلك[6]، وكان من أكبر مستشاريه: ربيعة الجرشي، وروح بن زنباع[7]، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يأخذ بكل استشارة، فكان يشاور يحيى بن الحكم، ثم يخالفه، ويقول: من أراد صواب الرأي فليخالف يحيى بن الحكم فيما يشير به عليه[8].

2 - اعتماده على أهل الشام:

كان الخليفة عبد الملك يعتمد على أهل الشام، لأنهم أخلصوا له، فكان يخاطبهم: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح على فراخه يتقي عنهم القذر ويباعد عنهم الحجر، ويكفهم

(1) الخطط للمقريزي (1/ 302).
(2) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (1/ 75).
(3) تاريخ أفريقية والمغرب، ص: 46 الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 242.
(4) الفخري في الآداب، ص: 126.
(5) أنساب الأشراف (5/ 335).
(6) العقد الفريد (1/ 20).
(7) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 94.
(8) أنساب الأشراف (5/ 335).

من المطر، ويحميهم من الضباب، ويحرسهم من الذئاب، يا أهل الشام أنتم الجبة والرداء وأنتم العدة والجداء[1]، ولا غرابة في ذلك فملك بني أمية قام على أكتاف قبائل الشام وجنودها.

3 - الشخص المناسب في المكان المناسب:

وقد حرص على تحقيق هذا المبدأ، وكان يوكل المهمات لأصحابها، ففي رسالة جوابية أرسلها الخليفة عبد الملك إلى خالد بن عبد الله أمير البصرة، سنة 72هـ قال له فيها: . . فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها، ابنها وابن أبنائها. . . فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه[2]، كما كان يحسن معاملة قادته وحاشيته ويكرمهم ويمن عليهم، ويواسيهم، ويزورهم إذا مرضوا[3].

4 - متابعة أخبار العمال والولاة:

فقد كان يقظاً وحريصاً على نزاهة عماله، واستقامة أخلاقهم وبعدهم عن الشبهات، فعندما بلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية فاستدعاه إليه ثم سأله: أقبلت هدية منذ وليت؟ قال: يا أمير المؤمنين بلادك عامرة، وخراجك موفور، ورعيتك على أفضل حال، قال: أجب فيما سألتك عنه، أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: نعم، قال: إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك، أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاه، إنك لخائن جائر، وما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع، وأمر بصرفه عن عمله[4].

5 - تقديم الأقرباء في المناصب وحفظ التوازن القبلي:

كان الخليفة عبد الملك في اختياره لعماله قد حبذ أقرباءه من أفراد البيت الأموي بالدرجة الأولى، واستعملهم في المناصب المختلفة، إلا أنه كان يراقبهم مراقبة دقيقة، ويعزل من أظهر عجزاً أو أخفق في عمله، كما أنه استخدم ولاته على الأقاليم في الأغلب من قبائل عرب الشمال، مضر، بينما اختار موظفي إدارته إلى حد كبير من قبائل عرب الجنوب، اليمن، ويبدو أن هذه كانت إحدى الوسائل التي اتبعها الخليفة لحفظ التوازن القبلي[5].

---

(1) سراج الملوك، ص: 118، الإصلاحات المالية، ص: 195، ومعنى الظليم الرامح: كذكر النعام الذي يدافع عن فراخه.

(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 195.

(3) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية، ص: 195.

(4) مروج الذهب (3/ 125).

(5) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية، ص: 196.

6 - تسامحه مع أهل الكتاب:

كان عهد عبد الملك عصر تسامح مع أهل الذمة، فلم يحاول الخليفة عبد الملك الاستيلاء على كنيسة يوحنا عندما رفض أهل الذمة تسليمها إليه[1]، كما أنه سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية، وبناء الكنائس والأديرة، فقد شيّد أثيناس - كاتب ديوان خراج مصر على عهد عبد العزيز - كنيسة» أم الإله« في الرها، كما شيّد في مصر أيضاً كنيستين وديراً، فضلاً عن شغلهم مناصب عالية في إدارة الدولة[2]، إذ كان الخليفة يثق بهم[3].

7 - التحقيق مع العمال المشتبه فيهم ومقاسمة أموالهم:

وقد قام عبد الملك بمقاسمة بعض عماله وقد أراد التشبه بالخليفة عمر بن الخطاب ﷺ في هذا الشأن، فقد جعل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري بمثابة المسئول عن مراقبة ومتابعة القضايا المالية في الأقاليم، فقد أرسله إلى الجزيرة الفراتية لدراسة وإصلاح الضرائب هناك[4]، كما قاسم» أثيناس« كاتب خراج مصر أمواله[5]، وبذلك اتبع نظاماً دقيقاً للاستخراج أو التكثيف، حيث كان يحقق مع الجباة وعمال الخراج - المشكوك في أمرهم - عند اعتزالهم عملهم ويستنطقون حتى يعترفوا بما ارتكبوا من مخالفات، وكان التحقيق مع هؤلاء يتم في أماكن خاصة تسمى» دار الاستخراج[6]«.

8 - الإحسان لمن ندم وبايع من أصحاب ابن الأشعث:

وبعد انتهاء تمرد ابن الأشعث كتب الخليفة إلى الحجّاج، في أخذ البيعة له من الناس قائلاً: أن ادع الناس إلى البيعة، فمن أقرّ بذنبه وندم على فعله فخله سبيله[7]، وعند ذلك أمر عبد الملك الحجّاج بإعطاء الناس عطاءهم فكتب إليه الحجّاج: أنهم نكثوا العهد ونقضوا البيعة وفارقوا الجماعة، وطعنوا على الأئمة، فكتب إليه عبد الملك: إنما تجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم[8]. وحين حاول الحجّاج أن يأخذ فضول» فروق العملة« أموال السواد، كتب الخليفة إليه يمنعه من ذلك قائلاً له: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وأبق لحوماً يعقدون بها شحوماً[9].

---

(1) فتوح البلدان، ص: 131 للبلاذري.
(2) الدعوة إلى الإسلام، ، ص: 85 أرنولد.
(3) تاريخ القدس، عارف، ص: 52.
(4) عبد الملك القائد للعسلي، ص: 122، الإصلاحات المالية، ص: 198.
(5) الوزراء للجهشياري، ص: 34، 35.
(6) النظم الإسلامية، ص: 196، حسن إبراهيم.
(7) المصدر نفسه.
(8) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 219.
(9) واسط في العصر الأموي، ص: 79.

9 - احترام وتقدير الشخصيات البارزة في المجتمع:

أدرك الخليفة عبد الملك أهمية توثيق العلاقة واحترامها مع الشخصيات البارزة في المجتمع، فقد حرص على كسبها وتأييدها، فحين بايع محمد بن الحنفية لعبد الملك أعطاه الخليفة ميثاقاً، وكتب إليه: إنك عندنا محمود... فلك العهد والميثاق وذمة الله ورسوله أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه، كما قضى حوائجه[1]، وكتب عبد الملك للحجّاج: لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه[2]. فلم يعترض الحجّاج لأحد من آل أبي طالب خلال ولايته، كما عزز عبد الملك الصلات مع آل العباس، فكان يكرم علي بن عبد الله بن العباس، ويعرف له حقه ويستوصي به خيراً، وكانت كتبه ترد إلى الحجّاج يأمره فيها أن لا يسيء إلى عروة بن الزبير[3]. وبذلك نجح عبد الملك في الاحتفاظ بصلات حسنة بين الأمويين وبني هاشم - علويين وعباسيين - فلم يقتل أحد من العلويين في عهده، فكانت هذه ثمرة حسن سياسته وبعد نظره[4].

10 - تحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء:

كان عبد الملك لا يسمح لولاته مجاوزة الخطوط الحمراء، فعندما أساء الحجّاج لأنس بن مالك كان رد عبد الملك على الحجّاج قاسياً، وقصة ذلك: دخل أنس بن مالك على الحجّاج ابن يوسف، فلمّا وقف بين يديه، سلمّ عليه فقال له: إيهٍ إيهٍ يا أُنيس يوم لك مع عليٍّ، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصِلنَّك كما تستأصل الشأفة[5]، ولأدمغنك كما تُدمغ الصمغة. فقال أنس: إيَّاي يعني الأمير أصلحه الله؟ قال: إياك، سك الله سمعك. قال أنس: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أيَّ قتلة قُتلتُ ولا أيَّ ميتة مِتُّ. ثم خرج من عند الحجّاج، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال الحجّاج، فلمّا قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وصَفَّقَ عجباً، وتعاظم ذلك من الحجّاج، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين: من أنس بن مالك أما بعد: فإن الحجّاج قال لي مُجراً[6]، وأسمعني نُكراً ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه، فإني أمُتُّ بخدمتي رسول الله، وصحبتي إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[7]، فقرأ عبد الملك الكتاب وهو يبكي وبلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلى الحجّاج بكتاب غليظ[8]، فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - وكان مصادقاً للحجّاج - فقال له:

---

(1) الطبقات (5/ 111، 112).
(2) العقد الفريد (4/ 400) الإصلاحات المالية، ص: 200
(3) أخبار العباس وولده، ص: 131، 154.
(4) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 201.
(5) الشأفة: قرحة تخرج من أسفل القدم فتقطع أو تكوى.
(6) هجراً: يعني فحشاً.
(7) البداية والنهاية (12/ 540).
(8) البداية والنهاية (11/ 386).

دونك كتابيَّ هذين فخذهما، واركب البريد إلى العراق وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ، فادفع كتابي إليه وأبْلغه مني السلام، وقال له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجّاج الملعون كتاباً، إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك، وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، أما بعد، فقد قرأت كتابَك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها واكتب إليَّ بذلك أُنزل به عقوبتي، وتَحْسُن لك معونتي والسلام. فلما قرأ أنس كتابه وأُخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عنِّي خيراً، وعافاه وكفاه واكفأه بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه[1]، كتاب عبد الملك إلى الحجّاج وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجّاج بن يوسف، أما بعد: فإنَّك عبد طمَتْ[2] بك الأمور فسموت فيها، وعدوت طوَرك، وجاوزت قدرَك، وركبت داهية إدًّا وأردت أن تَبُورني[3]، فإن سوَّغتكها مضيت قُدماً، وإن لم أُسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله عبداً أخفش العينين، منقوص الجاعرتين[4]، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل؟ يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تجاوز له إساءته جُرأة منك على الربِّ ﷻ واستخفافاً منك بالعهد، والله لو أنَّ اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عُزير ابن عزرًا، وعيسى بن مريم لعظمته وشرَّفته وأكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين، يطلعه على سرِّه ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خُفة ونعله وإلا أتاك مني سهم مثكِلٌ[5]، بحتف قاضٍ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون[6]، ولما علم الحجّاج بأن عبد الملك غاضب عليه استوى جالساً مرعوباً، ولما قرأ الكتاب اعتذر لأنس ولم يزل مكرماً له حتى مات[7]، وكتب الحجّاج خطاباً يعتذر فيه عما حدث منه في حق أنس[8].

11 - محاربته للمداهنة والنفاق بين الناس:

لم يكن عبد الملك يسمح لأحد أن يداهنه، أو ينافقه، أو يضيع وقته فيما لا يفيد، فقد طلب رجلاً من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف، فلما أراد الرجل أن يتكلم

---

(1) البداية والنهاية (12/ 540).
(2) طمَت: ارتفعت وسمت.
(3) تبورني: تختبرني.
(4) الجاعرتين: حرفا الوركين المشرفين على الفخذين.
(5) البداية والنهاية (11/ 542).
(6) المصدر نفسه (12/ 542).
(7) العقد الفريد (3/ 13) الحجاج المفترى عليه، ص: 168.
(8) العقد الفريد (3/ 13/ 14).

بادره عبد الملك قائلاً: احذر في كلامك ثلاثاً، إياك أن تخدعني، فأنا أعلم بنفسي منك، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب أو تسعى إليّ بأحد من الرعية، فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جوري وظلمي[1].

12 - مفهوم السياسة عند عبد الملك:

أدرك الخليفة عبد الملك معنى السياسة بشكل دقيق واستوعب دروسها، كما أدرك السبل العملية لسياسة الناس، ومن مختلف منازلهم، فحين سأله الوليد وقال: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف واحتمال هفوات الصنائع[2].

13 - سيرة أبي بكر وعمر ورعيتهما:

قال عبد الملك: أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر؟ نسأل الله أن يعين كلاً على كل، إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه... وهذا الكلام لا يسلم له به على إطلاقه، لأن السلطان المطلوب منه أن يسير مع القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين ويعمل على نشر سير الصالحين ويقتدي بهم لا أن ينهى عن ذكر عمر ويقول:.. فإنه مرارة للأمراء، مفسدة للرعية[3]. والحقيقة تقول أن الأمراء في العهد الأموي الكثير منهم لا يستطيع أن يقتفي أثر عمر ولا أن يسير بسيرته، فيحز ذلك في نفوسهم، ويترك الحسرة والمرارة في قلوبهم، وأما الرعية فإنهم يسرعون إلى المقارنة بين ما هم فيه، وبين ما كان عليه الناس في عهد عمر، وما كانوا يتمتعون به من العدل والمساواة، والحرية والتمتع بكل حقوق الإنسان، فيدفعهم ذلك إلى التمرد على أمرائهم، والسخط على أوضاعهم، وعدم الرضا بما هم فيه[4]، وأمثال عبد الملك يريد الأمور أن تستقر على منهاج الملك العضوض، وأما منهاج الخلافة الراشدة فيضيق عليه الخناق، وفي الحقيقة، إن سوء حال الحكم في مجتمع ما كان ذلك لنقص في الراعي والرعية معاً[5]، كما أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين ليس أمر مستحيلاً، ولكن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق بين الراعي والرعية، حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب وطريق ذلك طويل وشاق، ويحتاج ربما إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على معاني الإيمان ويعطون في ذلك القدوة والمثل، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[6].

---

(1) البداية والنهاية (12/ 387).
(2) عيون الأخبار (1/ 9) الإصلاحات المالية، ص: 196.
(3) الطبقات الكبرى (5/ 233).
(4) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 329).
(5) مجموع الفتاوى (35/ 20).
(6) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 277.

هذه هي أهم الخطوط العامة لسياسة عبد الملك في إدارة شؤون الدولة.

خامساً: من أهم ولاة عبد الملك: الحجّاج بن يوسف الثقفي:

هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، سمع من ابن عباس وروى عن أنس وسمُرة بن جندب، وعبد الملك بن مروان، وأبي بردة بن أبي موسى، وروى عنه أنس بن مالك وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وقتيبة بن مسلم[1].

1 - بداية ظهوره:

كان الحجّاج وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف ثم قدم دمشق، فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك فشكا عبد الملك إلى روح أنَّ الجيش لا ينزلون لنزله، ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندي رجلٌ تولّيه ذلك فولى عبد الملك الحجّاج أمر الجيش، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون، فضربهم وطوّف بهم، وأحرق الفسطاط، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك فقال للحجّاج: لم صنعت هذا؟ فقال: لم أفعله إنما فعلته أنت، فإنَّ يدي يدُك وسوطي سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه وبدل الغلام غلامين، ولا تكسُرني في الذي ولّيتني؟ ففعل ذلك وتقدم الحجّاج عنده[2].

2 - رأي الذهبي فيه:

كان ظلوماً، جباراً خبيثاً سفّاكاً للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن... إلى أن قال: فنسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد في الجُملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء[3].

3 - رأي ابن كثير فيه:

وكانت فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق[4]، وكان يغضب غضب الملوك، وكان - فيما يزعم - يتشبه بزياد بن أبيه، وكان زياد يتشبّه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ولا سواء ولا قريب[5]، وقال: وبالجملة فقد كان الحجّاج نقمة على أهل العراق بما سلف من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم، والافتيات عليهم[6]، وقال:... وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد رُوِي عنه ألفاظ بشعة شنيعة

(1) البداية والنهاية (12/ 507).
(2) المصدر نفسه (12/ 509).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 343).
(4) البداية والنهاية (12/ 510) الرهق: الهلاك والظلم.
(5) المصدر نفسه (12/ 510).
(6) المصدر نفسه (12/ 536).

ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ في عهدتها، ولكن يخشى أنَّها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كان يبغضونه جداً لوجوه، وربَّما حرّفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء، فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسرائرها وخفيَّات الصدور وضمائرها[1].

فلا نكفر الحجّاج، ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه، وأمره إلى الله.

4 - من خطب ومواعظ الحجّاج:

قال الشعبي: سمعت الحجّاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد، فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يَغُرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل[2]، وعن أبي عبد الله الثقفي عن عمّه، قال: سمعت الحسن البصريَّ يقول: وقذتني كلمة سمعتها من الحجّاج، سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لحريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة[3].

5 - صدق الله وكذب الشاعر:

جاء رجل إلى الحجّاج فقال إن أخي خرج مع ابن الأشعث، فضُرب على اسمي في الديوان، ومُنعتُ العطاء، وقد هُدِمت داري.

فقال الحجّاج: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يَجْني عليك وقد ... تُعدي الصِّحاح مبارك الجُرْب

ولربَّ مأخوذٍ بذنب قَريبه ... ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير، إني سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق من هذا. قال: وما قال؟ قال ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: 78-79]. قال: يا غلام أعِد اسمه في الديوان، وابْن داره، وأعطاه عطاءه، ومُرْ منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر[4]، فهذه القصة تدل بوضوح على أن للشريعة الإسلامية سلطانها وهيبتها، حتى

(1) البداية والنهاية (12/ 522).
(2) المصدر نفسه (12/ 536).
(3) المصدر نفسه (12/ 522).
(4) المصدر نفسه (12/ 523).

على طغاة الحكام، وهذه خصيصة فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضيعة، كما تدلنا على أن أطغى الطغاة في العصور الأولى لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله أو تحدي نصوصها، ولو كان هو الحجّاج بن يوسف، المشهور بالقسوة والجبروت[1].

6 - الحجّاج مع أعرابي:

حجّ الحجّاج مرّة، فمر بين مكة والمدينة، فأُتي بغذائه فقال لحاجبه: انظر من يأكل معي، فذهب، فإذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال: أجب الأمير. فقام، فلمّا دخل الحجّاج قال له: اغسل يديك ثم تغدَّ معي. فقال: إنّه دعاني من خير منك، فأجبته. قال ومن هو؟ قال: الله دعاني إلى الصوم، فأجبته. قال: في هذا الحرّ الشديد؟ قال نعم، صمت ليوم هو أشدُّ حرًّا منه قال: فأفطر وصُم ليوم غد، قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إليَّ. قال: فكيف تسألني عاجلاً بأجل لا تقدر عليه؟ قال: إن طعامنا طعام طيب.. قال: لم تُطيِّبه أنت ولا الطباخ، إنّما طيَّبته العافية[2].

7 - زواج الحجّاج من بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

قال الشافعي: لمّا تزوج الحجّاج بنت عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أتُمكنه من ذلك؟ فقال: وما بأس بذلك؟ قال: أشدُّ البأس والله. قال: وكيف؟ قال: والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير منذ تزوجت رملة بنت الزبير. قال: فكأنه كان نائماً فأيقظه، فكتب إلى الحجّاج يعزم عليه في طلاقها فطلقّها[3]، وجاء في رواية: يا أمير المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجّاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه فإنه لم يكن بين أهل بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى إني ما أحب أكثر منهم[4]، حتى قلت:

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... خلخالاً يجول ولا قُلْبا
فلا تكثروا فيها الملام فإنني ... تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بني العوام من أجل حُبِّها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا[5]

وكان الحجّاج يحترم أهل البيت ويكرمهم وما زواجه ببنت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم، وعلى الرغم من أنه طلقها فما زال واصلاً لعبد الله حتى مات، فكان يرسل له في كل شهر عيراً تحمل كسوة وتحفاً وميرة وكل ما يحتاج إليه[6]، وقد تجلى

(1) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص: 22.
(2) البداية والنهاية (12/ 518).
(3) المصدر نفسه (12/ 517).
(4) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 137.
(5) وفيات الأعيان (2/ 224، 225).
(6) المستطرف من كل فن مستظرف (2/ 321).

ذلك في أنه قال مرة: ليقم كل رجل منك يذكر بلاءه لنعطيه فقام رجل فقال: أنا قاتل الحسين. فقال: كيف قتلته؟؟ قال: دسرته بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً. فقال: أما والله لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة، وحرمه من العطاء[1]، وما يذكر في كتب التاريخ من كون الحجّاج نصب العداء لأهل البيت غير صحيح، وخصوصاً إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسي الخلافة ويعملوا على الوصول إليه.

8 - الحجّاج والشعراء:

وكان الحجّاج يقرب الشعراء ويستمع لشعرهم وكثيراً ما كان ينقد الشعر بملكة الأديب كما يحفظ الكثير من جيد الشعر ويقتبس منه في خطبه بما يناسب المقام، ومن الشعراء الذين أحسن لهم الحجّاج **جرير بن عطية**، فقد أطنب في مدح الحجّاج وأنشده قصيدة من عيون الشعر منها:

من سَدَّ مُطَّلَع النفاق عليهم ... أم من يصول كصولة الحجّاج؟
أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضي البصيرة واضح المنهاج[2]

ومدحه بقصيدة أخرى من غرر الشعر جاء فيها:

ترى نصر الإمام عليك حقا ... إذا لبسوا بدينهم ارتيابا
عفاريت العراق شفيت منهم ... فأمسوا خاضعين لك الرقابا
وقالوا لن يجامعنا أمير ... أقام الحد واتبع الكتابا[3]

وصار جرير يقول في الحجّاج قصائد من عيون الشعر وطال بقاؤه في بلاطه فخشي الحجّاج أن يكون في ذلك سبيل لدسيسة يتقرب بها بعض الناس لأمير المؤمنين، فرأى أن يرسله لدمشق ليمدح عبد الملك وأجزل له العطاء[4]، ومن الشعراء الذين مدحوا الحجّاج: ليلى الأخيلية، والفرزدق والأخطل وغيرهم.

9 - رؤية رآها الحجّاج:

رأى أن عينيه قُلعتا: وكان تحته هند بنت المُهلَّب، وهند بنت أسماء بن خارجة فطلَّقهما

---

(1) تاريخ الإسلام للذهبي، سرح العيون لابن نباته، ص: 108، الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 399.
(2) ديوان جرير، ص: 90، 91.
(3) الكامل في الأدب نقلاً عن الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 365.
(4) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 368.

ليتأوّل رؤياه بهما، فمات ابنه محمد وجاءه نعيُ أخيه محمد من اليمن، فقال: هذا والله تأويل رؤياي: محمد ومحمد في يوم واحد، إنا لله وإنا إليه راجعون ثم قال من: يقول شعراً فيُسلني به فقال الفرزدق:

إن الـرَّزيَّـة لارزيَّـة بـعـدهـا فـقـدان مـثـل مـحـمـد ومـحـمـد
مَلِكان قد خلت المنابر منهما أخذ الحمام عليهما بالمرصد[1]

10 - مقتل سعيد بن جبير:

في عام 95هـ قتل الحجّاج سعيد بن جبير المقرئ المفسِّر المحدث الفقيه، أحد الأعلام وله نحو من خمسين سنة أكثر روايته عن ابن عبّاس، وحدّث في حياته بإذنه، وكان لا يكتب الفتاوى مع ابن عبّاس، فلمّا عَمِيَ ابن عباس كتب، وروي أنه قرأ القرآن في ركعة في البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وأخرى بقراءة غيرهما وهكذا أبداً، وقيل: كان أعلم التابعين بالطّلاق سعيد بن جبير، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس، وبالتفسير مجاهد، وأجمعهم لذلك سعيد بن جبير، وقتله الحجّاج وما على وجه الأرض أحد إلّا وهو مفتقر إلى علمه[2]، وقال الحسن يوم قتله: اللهمّ أعِنْ على فاسق ثقيف، والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا في قتله لأكبهم الله في النار[3]، وعندما أمر الحجّاج بقتل سعيد قال سعيد: اللهم لا تحل له دمي ولا تُمهله من بعدي[4]، وأصيب الحجاج بفزع عظيم وجعل يقول: مالي ولك يا سعيد بن جبير، وكان في جملة مرضه كلما نام رآه آخذاً بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتني، فيستيقظ مذعوراً ويقول: مالي ولابن جبير[5].

11 - مرض الحجاج وموته:

أ - خطبته قبل موته: لما مرض الحجّاج أرجف الناس بموته فقال في خطبته: إنَّ طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم، فقالوا: مات الحجّاج، ومات الحجّاج، فمه، وهل يرجو الحجّاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يُسرُّني أن لا أموت وأنَّ لي الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضي التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس، قال الله له ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف: 15]. فأنظره إلى يوم الدين، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: 35]. فأعطاه الله ذلك إلا البقاء، فما عسى أن يكون أيُّها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل، كأنّي والله بكل حيٍّ منكم ميتاً، وبكل رطبٍ يابساً، ثم نُقِلَ في

(1) شذرات الذهب (1/ 382).
(2) المصدر نفسه (1/ 383).
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه (1/ 386).
(5) المصدر نفسه.

ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضاً، فأكلت الأرض لحمه، ومصَّت صديده، وانصرف الحبيب من ولده يُقسِمُ الحبيب من ماله، إن الذين يعقلون يعقلون ما أقول[1].

ب - الآلام الشديدة التي تعرض لها الحجّاج في مرضه: كان موت الحجّاج بالأكلة[2] في بطنه، سوَّغه الطبيب لحماً في خيط فخرج مملوءاً دوداً، وسُلط عليه أيضاً البرد فكان يوقد النَّار تحته وتأجُّجُ حتى تحرق ثيابه وهو لا يُحِسُّ بها، فشكا ما يجده إلى الحسن البصري - كما جاء في بعض الروايات - فقال له: ألم أكن نهيتُك أن تتعرّض للصالحين، فلججت، فقال له: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني ولكني أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي، فبكى الحسن بكاءً شديداً، وأقام الحجّاج على هذه العلة خمسة عشر يوماً فلما أُخبر الحَسَنُ بموته سجد شكراً، وقال: اللهمَّ كما أمتّه أمِتْ سنّته[3]، وعن الأصمعي، قال: لما حضرت الحجّاج الوفاة أنشأ يقول:

يا ربِّ قد حلف الأعداء واجتهدوا ... بأنني رجل من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم ... ما علمهم بعظيم العفو غفار[4]

وقال عند موته: اللهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل[5]، وعن عمر بن عبد العزيز أنَّه قال: ما حسدتُ الحجّاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبِّه للقرآن وإعطائه أهله، وقوله له حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإنَّ الناس يزعمون أنك لا تفعل[6]، ولما قيل للحسن البصري: إن الحجّاج قال عند الموت كذا وكذا. قال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى[7]، وقد فرح أهل العراق بموت الحجّاج، وسمي يوم موته عرس العراق[8].

ج - عمره لما مات وما تركه من مال: قال العماد في سنة 95هـ: فيها أراح الله العباد والبلاد بموت الحجاج بن يوسف الثقفي في ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين رمضان، وله ثلاث وقيل أربع أو خمس وخمسون سنة أو دونها[9]، وزعموا أنَّ الحجّاج مات ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرْجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة[10].

د - ما رؤي له بعد موته: وقال الأصمعي عن أبيه قال: رأيت الحجّاج في المنام فقلت ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتلة قتلت بها إنساناً.

---

(1) البداية والنهاية (12/ 594).
(2) الأكلة: داء يقع في العضو فيأكل منه.
(3) شذرات الذهب (1/ 381).
(4) البداية والنهاية (12/ 550).
(5) المصدر نفسه (12/ 550).
(6) المصدر نفسه (12/ 550).
(7) المصدر نفسه (12/ 550).
(8) المنتظم (7/ 4).
(9) شذرات الذهب (1/ 377).
(10) البداية والنهاية (12/ 552).

وكان الحسن لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجّاج فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنت الحجّاج قال: ما فعل الله بك؟ قال: قتلت بكل قتيل قتلته ثم عُزلت مع الموحِّدين. قال: فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه[1].

هـ - **حزن الوليد بن عبد الملك عليه:** لما مات الحجّاج تفجع عليه الوليد وجلس للعزاء فيه محزوناً عليه ومازال مهموماً حتى دخل عليه الفرزدق - الشاعر - فرثى الحجّاج رثاءً أرضى الوليد وأقر عينه فقد قال:

لبيك على الإسلام من كان باكيا ... على الدين من مستوحش الليل خائف
وأرملة لما أتاها نعيه ... فجادت له بالواكفات الزوارف

إلى أن قال:

فما ذرفت عيناي بعد محمد ... على مثله إلا نفوس الخلايف[2]

وتتابع الناس في دخولهم على الوليد يعزونه في الحجّاج ويثنون عليه خيراً، وقد وجد الوليد على عمر بن عبد العزيز لأنه لم يقل في الحجّاج شيئاً وألجأه إلى الكلام فقال: وهل كان الحجّاج إلا رجلاً من أهل البيت فنحن نُعزى فيه ولا نُعَزِّي[3]، وقال الوليد: لأشفعن في الحجّاج عند الله[4]، ووفاء لذكرى الحجّاج أقرّ الوليد العمال الذين استخلفهم[5].

و - **أقوال العلماء في موت الحجّاج:** عن معمر، ، عن ابن طاووس، عن أبيه أنه أخبر بموت الحجّاج مراراً، فلما تحقّق وفاته قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: 45].

- ولما أخبر إبراهيم النخعي بموت الحجّاج بكى من الفرح[6]، ولما بشر الحسن بموت الحجّاج سجد شكراً لله وقال: اللهم أمَتَّه، فأذهب عنا سنته[7]، وخرّ عمر بن عبد العزيز ساجداً حينما بلغه النبأ[8].

---

(1) البداية والنهاية (12/ 554).
(2) العقد الفريد (3/ 19) ديوان الفرزدق، ص: 212.
(3) مناقب عمر بن عبد العزيز، ص: 24.
(4) المحاسن والأضداد، ص: 126، النجوم الزاهرة (1/ 218).
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن الحجّاج المفترى عليه، ص: 150.
(6) المصدر نفسه (12/ 551).
(7) المصدر نفسه (12/ 551).
(8) العقد الفريد (3/ 18).

المبحث الرابع

النظام المالي في عهد عبد الملك

أولاً: مصادر دخل الدولة:

كانت من أهم مصادر دخل الدولة: الزكاة، والخراج، والجزية وخمس الغنائم والعشور والصوائف وقد تعرضت بعض هذه المصادر للانحراف عن الشريعة من قبل القائمين عليها وعلى سبيل المثال:

1 - الجزية:

صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ما يعادل 80000 درهماً سنوياً، ولما تولى عثمان بن عفان شكوا إليه قلة عددهم وتفرقهم في البلاد فخفضها عنهم إلى 72000 درهماً، فلما تولى معاوية بن أبي سفيان، شكوا إليه نفس الشكوى فخفضها عنهم إلى 64000 درهماً، فلما تولى الحجّاج بن يوسف على العراق اتهمهم بمعاونة خصوم الدولة السياسيين فرفعها إلى 720000 درهماً[1]، ويمكن القول بأن رفع نظام الجزية في العصر الأموي شهد بصفة عامة انحرافات في طريقة الجباية والتي منها ما قيل أن المهلب بن أبي صفرة، حينما صالح أهل خوارزم على ما يزيد على عشرين مليون درهماً، كان يأخذ بدل النقد سلعاً عينية لعدم توفر السيولة النقدية لدى أهلها، لكنه أجحف في ذلك حيث كان يأخذ الشيء بنصف قيمته، فبلغ ما أخذه منهم خمسين مليون درهماً[2]، كما شهد انحرافات أخرى متمثلة في استمرار فرض الجزية على من أسلم، وقد برز هذا الأمر بصفة خاصة في ولاية الحجّاج[3]، ومع ذلك يمكن القول بأن التأثير الاقتصادي لهذا الانحراف كان محدوداً، وذلك لأن قرار الحجّاج في العراق قوبل بثورة أوقفت تطبيقه[4]، وأيضاً كان الانحراف الذي وقع في خراسان محدوداً، وعولج سريعاً بمجيء عمر بن عبد العزيز، ولكن للأسف لم يكتب لهذا الإصلاح الاستمرار حيث انتهى مفعوله بانتهاء عهد عمر بن عبد العزيز[5].

2 - الخراج:

تدنى الخراج كثيراً في عهد الحجّاج حتى وصل طبقاً لبعض الروايات إلى 18 مليون درهماً

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 69.
(2) البداية والنهاية نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص: 70.
(3) تاريخ الطبري نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص: 70.
(4) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس، ص: 219.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 71.

وقيل أنه وصل إلى 25 مليون عند موت الحجّاج[1]، بعد ما كان في عهد معاوية قد بلغ 135 مليون درهماً[2]. وقام عبد الملك بمسح أرض الشام والجزيرة ويبدو أنه استقل ما كان يجبى من خراجهما، وكان معياره في التقدير هو مدى القرب والبعد من الأسواق، وكانت مسيرة اليوم واليومين فأكثر هي غاية البعد عنها، وما نقص عن اليوم فهو من القرب، وبناء على ذلك كان الخراج المفروض على الأرض القريبة يزيد عن المفروض على الأرض البعيدة[3]، وقد أحدث هذا المسح زيادة في حصيلة الخراج[4]، ويبدو أن عبد الملك أراد أن يعوض ما حدث من نقص في خراج العراق بسبب الثورات.

3 - الصوافي:

ويمجيء عبد الملك أقطع جميع الصوافي للأشراف حتى لم يبق منها شيئاً، إلا أن هؤلاء الملاكين الكبار لم يتوقفوا عن المطالبة بمزيد من القطائع وأمام إلحاحهم المستمر، قام الخليفة بالتصرف ببعض الأراضي الخراجية التي توفي أصحابها ولم يكن لهم ورثة فأقطعهم جميع هذه الأراضي، وجعل لأصحابها حق ملكيتها التامة، بما في ذلك توريثها على أن يدفعوا عن هذه الأراضي ضريبة العشر، ورفع ضريبة الخراج عن هذه الأراضي وقد اعتبر الخليفة أن تصرفه هذا عملاً مشروعاً شبيهاً بإخراجه من بيت المال الجوائز الخاصة[5]. أي أن الخليفة قد برّر موقفه معتبراً أن ما قام به وكأنه نوع من المكافأة التي يحق للخليفة أن يأمر بها، بحيث أن ذلك يقع ضمن صلاحياته التي تتيح له أن يقدم المساعدات والمكافآت التي يراها مناسبة من بيت المال. ولكن هذا الموقف، الذي لم تكن تدعمه أية سوابق إسلامية في العهد الراشدي فقط بل هو يخالف صراحة ما قرّره المسلمون بشأن أراضي الصوافي والأراضي الخراجية حيث اعتبر فيئاً للمسلمين ووقفاً لهم فلا يحق لأحد التصرف فيها بأي شكل من الأشكال، إن كان بالبيع أو بالشراء أو بمنحها قطائع، حتى وإن كان أصحابها أي العاملين على هذه الأرض قد توفوا وليس لهم وارث، ولهذا فلا يصحّ ولا يجوز أن تعتبر هذه الأراضي متساوية مع الجوائز الخاصة[6]، هذه بعض الانحرافات التي حدثت في مصادر الدولة وكان لها الأثر البالغ على النظام المالي.

---

(1) التطور الاقتصادي، ص: 74.
(2) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 175.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 76.
(4) المصدر نفسه، ص: 76.
(5) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 117.
(6) المصدر نفسه، ص: 118.

ثانياً: النفقات العامة:

1 - النفقات العسكرية:

في عهد عبد الملك زادت عطاءات الجنود العرب حتى بلغ حدها الأدنى 1200 درهماً. وحدها الأوسط 1600 درهماً وحدها الأعلى 1800 درهماً[1]، في ولاية العراق، والغريب أن هذا لا يتلائم مع الحالة الاقتصادية في عهد الحجّاج والتي انخفضت فيها إيرادات المال بشكل كبير، لكن يفسر ذلك كثرة من خرج على الحجّاج من جنده، وكان يلقي عطاء من خرج عليه ويزيد في عطاء الباقين[2].

2 - نفقات الصناعات الحربية:

كان اهتمام الدولة الأموية منصباً على تطوير سلاح البحرية وسيأتي الحديث عن ذلك في الصناعات بإذن الله.

3 - النفقات الإدارية:

كان الحد الأقصى لرواتب الكتّاب طوال العصر الأموي وطرفاً من العباسي حتى عهد المأمون هو 3600 درهماً سنوياً، وكان حدها الأدنى 720 درهماً سنوياً[3]، وكان كتاب ديوان رسائل الحجّاج مرتبة ثلاثمائة درهم شهرياً، وقد كان يوزعها فيجعل لامرأته خمسين درهماً وينفق على شراء اللحم خمسة وأربعين درهماً، وما تبقى ينفقه على الدقيق وإن فضل شيء تصدق به، وقد عاده الحجّاج من علة، فوجد بين يديه كانوناً من طين ومنارة من خشب فقال له: ما أرى رزقك يكفيك. قال: إن كانت ثلاثمائة لا تكفيني فثلاثون ألفاً لا تكفيني[4]، ويمكن اعتبار متوسط الدخل الفردي المناسب في العصر الأموي هو ما بين مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة درهم شهرياً[5]، ويدخل من ضمن النفقات الإدارية، مرتبات الولاة والقضاة وموظفي الدولة عموماً، فقد كانت الدولة تتكفل بمرتباتهم.

ثالثاً: تطور القطاع الزراعي:

كان تطور القطاع الزراعي للدولة الأموية في الجانب الغربي وذلك بسبب عوامل عديدة منها:

1 - الاستقرار السياسي لتلك المنطقة خلال معظم العصر الأموي.

2 - الاستقرار النقدي الذي كانت تتمتع به المنطقة حتى قبل سك النقود الإسلامية، ذلك أنها ورثت الدنانير البيزنطية، والتي ظلت عملة مستقرة لم تتعرض لما تعرضت له الدراهم الفارسية من غش.

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 100.
(2) المصدر نفسه، ص: 100.
(3) المصدر نفسه، ص: 107.
(4) المصدر نفسه، ص: 108.
(5) المصدر نفسه، ص: 108.

3 – أن المنطقة الغربية من الدولة الأموية لم تعان مما كانت تعاني منه المنطقة الشرقية من تركز في الثروة، ووجود عدد كبير نسبياً من أفراد المجتمع دخولهم منخفضة نسبياً، ويعود ذلك إلى أن مادة الجيش الأموي السياسية كانت من جند الشام، وقد تميز أهل هذه المنطقة في العطاء[1]، مما جعل الدورة الاقتصادية في المنطقة الغربية تدور بسرعة أكبر وبالتالي ينشط القطاع الزراعي فيها بشكل أكبر وينمو بشكل أسرع، بينما كان معظم سكان المنطقة الشرقية هم من أصحاب الدخول المنخفضة «الموالي».

4 – استبدال الضرائب العينية في كل من الجزيرة والشام بضرائب نقدية خلال المسح الذي تمّ في عهد عبد الملك[2]، وهذا أثر في العطاء، فزاد الطلب النقدي لساكني المدن على السلع الزراعية، ومنتجات الريف، وأحدث نوعاً من الاستقرار وأحدث زيادة في دخول المزارعين مكنتهم من تحقيق تنمية زراعية[3].

وقد ظهرت دلائل التطور الزراعي بالمنطقة الغربية كثمرة لتلك العوامل وغيرها وكان من أبرز تلك العوامل:

1 – زيادة حصيلة خراج منطقتي الجزيرة والشام نتيجة المسح الذي تم لهما في عهد عبد الملك بن مروان.

2 – تطور نظام الري من خلال توزيع المياه بين الأنهار الفرعية[4]، مما أدى إلى زيادة إنتاجية الأراضي الزراعية، فهذه بعض الدلائل التي تشير إلى التطور الزراعي بالمنطقة الغربية من الدولة الأموية.

• التدهور الزراعي في القسم الشرقي من الدولة الأموية:

كان الطابع العام لقطاع الزراعة في هذا القسم السير نحو التدهور، ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى تدهور القطاع الزراعي في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية ما يلي:

1 – الاضطراب السياسي، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية.

2 – تركز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالي، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أي حدوث كساد اقتصادي بالمنطقة[5].

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 192.
(2) المصدر نفسه، ص: 193.
(3) المصدر نفسه، ص: 193.
(4) المصدر نفسه، ص: 193.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 196.

3 - قرار بيع الأراضي الخراجية وجعل ثمنها في بيت المال، جاء ذلك لمواجهة النقص في إيرادات الدولة[1]. فأدى إلى توفير السيولة النقدية اللازمة للدولة على المدى القصير، لكنه على المدى الطويل كانت له آثار عكسية على إيرادات بيت المال فقد تحولت هذه الأراضي الخراجية إلى أراضي عشرية، وبينما لا تقل ضريبة الخراج عن (25%) وقد تصل إلى (50%) من حصيلة الإنتاج الزراعي سنوياً، أصبح الحد الأقصى بما تدره لبيت المال هو (10%) سنوياً، وقد أدى انخفاض إيرادات الدولة على هذا النحو إلى إضعاف مقدرة الدولة في المدى الطويل على تمويل المشاريع العامة، والتي كان غالبها يدعم قطاع الزراعة، إلى جانب ذلك كان لهذا القرار أثر مباشر على الإنتاجية الزراعية، فقد كان البائعون هم أصحاب الأرض الأصليين الذين عرفوا كيف يتعاملون معها، وأسلوب زراعتها، واكتسبوا الخبرة الزراعية من طول مكثهم فيها، بينما كان المشترون من العرب وهم ذوو خبرة قليلة بالزراعة، خاصة إذا ما قورنت بالنسبة لخبرة المزارعين الأصليين.

4 - إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث في عهد الحجّاج من أن بثوق انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح فلم يعمل الحجّاج - بوصفه والي المنطقة - على سد تلك البثوق مضارة لأهلها - لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث في الخروج عليه - فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[2].

5 - حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالي والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والي العراق إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[3].

ونتيجة لتلك الأسباب وغيرها فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعي العام في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، وكان أبرز تلك العلامات ما يلي:

1 - تدهور غلة الخراج، حيث أخذت في التناقص المستمر[4].

2 - هجرة الفلاحين للأراضي الزراعية والاتجاه نحو المدن، وذلك لزيادة حجم ضريبة الخراج - بالضرائب الإضافية - وعنف الجباية، فتركوا أراضيهم وهاجروا إلى المدن[5].

---

(1) الخراج والنظم المالية، ص: 203، 204.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 198.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه، ص: 199.
(5) تطور ملكية الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي، ص: 195.

3 - حالة القلق التي انتابت المزارعين الذين بقوا في أراضيهم مما دفعهم لتسجيل أراضيهم لأسماء الأمراء والأشراف - وهو ما يعرف بالإلجاء - طلباً للحماية، ومن أمثلة ذلك إلجاء كثير من المزارعين أراضيهم بمسلمة بن عبد الملك للتعزز به[1].

4 - حدوث نقص كبير في الإنتاج الحيواني، وبالذات حيوانات الحرث، مما دفع والي العراق إلى إصدار أمر يقضي بمنع ذبح الأبقار[2] في أحد خطوات علاج الأزمة، كما قام بتوريد كمية من الجواميس من إقليم السند لسد العجز الحاصل في دواب التنمية الزراعية[3].

ومع ذلك فقد كانت خلال هذه الفترة مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال عهد عبد الملك وكان من أبرزها ما يلي:

1 - عملية نقل الأيدي العامة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية من الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة:

أ - نقل الحجّاج بن يوسف عدداً من مزارعي بلاد السند بأهليهم وجواميسهم وإسكانهم في أرض موات، فأحيوها[4].

ب - نقل رؤوس الأموال إلى مناطق فقيرة لتنميتها، ومثال ذلك إسكان قتيبة بن مسلم لمجموعة من العرب في سمرقند[5]، ومعلوم أن العرب كانوا من أعلى الناس ثروة في العصر الأموي[6].

رابعاً: تطور التجارة:

مر تطور التجارة الداخلية في عهد عبد الملك بمرحلة ضعف بسبب عوامل أثرت على حجم التجارة الداخلية، كان من أبرزها ما يلي:

1 - كثرة الفتن والقلاقل الداخلية التي عصفت بمعظم أركان الدولة الأموية، ومن المعلوم بداهة أن الاستقرار السياسي والأمن الداخلي هي من أولويات ازدهار التجارة الداخلية ونموها، ومع افتقادهما في الدولة الأموية بشكل كبير تعثرت التجارة الداخلية.

2 - نقص السيولة النقدية.

3 - صعوبة دفع الأثمان للصفقات التجارية، وعلى جهة الخصوص الكبيرة منها.

4 - ارتفاع نسبة الضرائب على التجارة حيث روي أنها وصلت[7] إلى 33%.

---

(1) الخراج والنظم المالية للريس، ص: 260.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 199.
(3) فتوح البلدان، ص: 368 للبلاذري.
(4) الخراج والنظم المالية للدولة الأموية، ص: 215.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 200.
(6) المصدر نفسه، ص: 200.
(7) المصدر نفسه، ص: 216.

ومع بداية 77 هـ نمت التجارة الداخلية وازدهرت، وكان وراء ذلك العديد من الأسباب من أبرزها:

1 - زيادة السيولة النقدية الداخلية، وذلك بإصدار العملة الإسلامية الجديدة الموحدة، والتي تطورت من حيث الدقة والانضباط والعيار حتى أصبحت محل ثقة المتعاملين في الأسواق وأصبحت تلقى قبولاً عاماً مما سهل عملية المبادلات بشكل كبير، وحل عدد النقود محل وزنها وبذلك كانت عملية الإصدار النقدي نقطة تحول في تطور التجارة الداخلية بشكل خاص، سواءً من حيث الزيادة في حجمها أو الاتساع في أرجائها.

2 - حدوث هدوء واستقرار نسبي داخل الدولة الأموية بعد القضاء على الثورات الداخلية.

3 - تمت في هذه المرحلة بعض الإصلاحات التي كان من شأنها تيسير الصفقات التجارية، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

أ - توحيد وحدة الكيل والميزان من قبل الحجّاج بإقليم العراق[1].

ب - تنظيم الأسواق مما يسهل ويخدم الحركة التجارية[2].

ج - وجود خدمات لراحة التجار، كالفنادق والحمامات داخل الأسواق[3].

وأما التجارة الخارجية في عهد عبد الملك، فقد كانت متعلقة بالدولة البيزنطية ودول المشرق الأقصى.

1 - العلاقة مع الدولة البيزنطية:

وقد مرّت العلاقة التجارية بمرحلتين:

* مرحلة نمو وقوة وازدهار:

وقد نشأ هذا النمو والقوة والازدهار نتيجة عدة عوامل لعل من أهمها:

أ ـ كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئي، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطية بالغرب.

ب - الاستقرار الأمني في المناطق الغربية مع الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر في الشرق إلى إقليم الشام، بحثاً عن فرص استثمارية آمنة.

ج - الاعتماد الكلي لكل من الدولتين على الأخرى في مجال هام وحيوي بالنسبة لها،

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 217.
(2) المصدر نفسه، ص: 217.
(3) المصدر نفسه.

فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على أوراق البردي، كانت الدولة الأموية تعتمد كلياً في حجم النقد الذهبي داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية[1].

* - مرحلة تدهور المبادلات التجارية بين البلدان:

وقد شهدت هذه المرحلة انخفاضاً كبيراً في المبادلات التجارية بين الدولتين ويعود ذلك إلى عدة عوامل من أبرزها ما يلي:

أ - تدهور العلاقات السياسية بين الدولتين بشكل كبير.

ب - حدوث هدوء نسبي في الأقاليم الشرقية بعد قضاء على الثورات الداخلية، مما أدى إلى رفع معدلات التبادل التجاري مع دول الشرق الأقصى.

ج - دخول معظم دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية فتهيأ لها نوعاً من الاكتفاء الذاتي لتلك الدولة، لا سيما بعد دخول بلاد الهند والسند.

د - تزايد اعتماد الدولة الأموية في تجارتها مع دول الشرق الأقصى على التجارة البحرية عن طريق الخليج العربي، لا سيما بعد تطور صناعة السفن بها[2]، بشكل أصبحت معه قادرة على الخوض في المحيطات، مما جعل معظم تجارة الدولة الأموية مع دول الشرق الأقصى تتم بواسطة الطرق البحرية[3]، فنتيجة لتلك العوامل وغيرها تدهورت التجارة بين البلدين.

2 - العلاقات التجارية مع دول المشرق الأقصى:

كانت تعتمد التجارة بين الدولة الأموية ودول المشرق على نوعين من الخطوط، وهما خطوط التجارة البرية وخطوط التجارة البحرية.

أ - التجارة عن طريق الخطوط البرية: دخلت كثير من دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية لا سيما بلاد الهند، والسند، والتي كانت تحتل صادراتها نسبة كبيرة من واردات الدولة الأموية، ومعنى ذلك تحول جزء من التجارة الخارجية مع الشرق إلى تجارة داخلية بين أرجاء الدولة الإسلامية[4].

ب - التجارة عن طريق الخطوط البحرية: اهتمت الدولة بالتجارة البحرية وأكدت على عنصر الأمن للطرق التجارية، ومن صور ذلك إرسالها جيش للقضاء على قراصنة كانوا يقطعون الطريق على تلك الخطوط البحرية فقضى عليهم[5]، واهتم الحجاج بتحصين المدن

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 208.
(2) المصدر نفسه، 209.
(3) المصدر نفسه، ص: 209.
(4) المصدر نفسه، ص: 211.
(5) المصدر نفسه، ص: 212.

التجارية[1]، كما طور صناعة السفن التجارية وأصبحت وسائل النقل البحري والرحلات التجارية أكثر أمناً وسرعة وأعلى كفاءة مما شجع على رواج التجارة[2].

خامساً: الحرف والصناعات: من أشهر الصناعات في عهد عبد الملك:

1 - صناعة المنسوجات:

وقد تطورت صناعة النسيج في الدولة الأموية كثيراً وأصبحت لها مصانع خاصة بها سميت دور الطراز، وكان دورها إنتاج الملابس الخاصة بموظفي الدولة الكبار، كالأمراء والولاة، وقد تحدثت عن ذلك في كلامنا عن ديوان الطراز.

2 - التشييد وصناعة مستلزمات البناء:

شهدت الدولة الأموية اهتماماً بالعمران، وتشييد المساكن، وزخرفتها، ومن أبرز ذلك المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وقد أدى الإقبال على تزيين البيوت والتأنق فيها إلى ظهور صناعات تلبي تلك الرغبات، فظهرت على سبيل المثال صناعة قطع الرخام وزخرفته، وكذا استخدام الزخارف الحبيسة لتزيين المباني[3].

3 - الصناعات الحربية:

توسعت هذه الصناعة في عهد عبد الملك بن مروان وفتح داراً بتونس لصناعة السفن الحربية وكانت نواة تلك الدار ألف عامل متخصص في صناعة السفن، ثم نقلهم من دار الصناعة - المنطقة الصناعية - بمصر، وقد تم وضع التنظيم اللازم وطريقة إمداد تلك الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المناطق للقيام بتلك المهمة، حيث هم أخبر الناس بمناطق وجود الأخشاب الجيدة الملائمة لتلك الصناعة[4]، وفي إرسال دار الصناعة بمصر لألف عامل ليكونوا نواة التصنيع بتونس ما يدل على مدى تطور تلك الصناعة بمصر وكبر حجمها. وفي تطور لاحق لصناعة السفن الحربية بتونس، قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة بها، فشق قناة بين الميناء وبين المدينة بطول اثني عشر ميلاً[5]، وشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة[6]

(1) الحجاج بن يوسف وجه حضاري في تاريخ الإسلام، ص: 59.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 213.
(3) تاريخ الموصل (1/ 223).
(4) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص: 115، 116.
(5) الإدارة في العصر الأموي، ص: 222.
(6) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 240.

وأصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني[1]، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية، وقد تطورت صناعة السفن التجارية في ولاية الحجّاج بصفة عامة[2]، وكان من أشهر أماكن صناعتها: البحرين ومدينةواسط بالعراق[3].

4 - صناعة البردي في مصر:

كان لهذه الصناعة أهميتها الخاصة، ذلك لأن البردي كان يستخدم قبل ظهور صناعة الورق آنذاك في المكاتبات وأعمال الدولة، وكانت الدولة تشرف على الإنتاج إشرافاً مباشراً لأهمية تلك الصناعة، وكانت صادرات البردي تدر أرباحاً طيبة، وما ذكر عنها من تطور أنها استبدلت العبارات البيزنطية التي كانت تطبع على البردي المخصص للتصدير بعبارات دينية إسلامية، وكان ذلك في عهد عبد الملك[4].

5 - صناعات وحرف أخرى:

ومن أهمها: حرفة الحدادة والصناعات الخشبية، صناعة الحلي والمجوهرات[5].

سادساً: إحداث دور ضرب العملة وتعريب النقد:

كانت عوامل عديدة تتجمع في الأفق كلها تشير إلى وجوب حدوث تطور كبير في نظام العملة المتعارف عليه في العالم الإسلامي بعد أن اتسعت رقعته ذلك الاتساع الكبير، واستقرت أحواله الداخلية بعد مضي فترة من خلافة عبد الملك بن مروان، فقد كان العالم الإسلامي يتعامل حتى ذلك الوقت بالعملة المالية لفارس والروم من دراهم، ودنانير، وهذه العملات المالية قد تناقصت كمياتها المتداولة بشكل يثير القلق بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية واضطراب الأحوال في إمبراطورية الروم، فلم يعد حجم هذه العملات المتوافر يكفي لتغطية النشاط التجاري والاقتصادي والحاجة المالية للدولة الإسلامية الواسعة والنشيطة[6].

وقد قام عبد الملك بتعريب النقد تعريباً نهائياً وأحدث دور الضرب التي تضرب فيها الدنانير، وجعلها بإشراف الخلافة، ويودّ المؤرخون أن يشعرونا بأنه فعل ذلك لأنه تخاصم مع ملك الروم فيقولون: إن الروم كانوا يأخذون من البلاد العربية صحائف البَرْدي، وأمر عبد الملك أن يكتب على رأس صحائف البردي «شهد الله أن لا إله إلا هو»، فغضب لذلك ملك الروم، وكان محتاجاً إلى البردي، فهدد بأن يطبع على الدنانير عبارات القذف بحق الرسول ﷺ، إن استمرت تلك العبارة على صحف البردي، فاعتمد عبد الملك أن يضرب

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 240.
(2) المصدر نفسه، ص: 242.
(3) المصدر نفسه، ص: 242.
(4) المصدر نفسه، ص: 243.
(5) المصدر نفسه، ص: 244.
(6) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 428.

السكة في بلاده ويستغني عن الدنانير التي تأتيه من بلاد الروم[1]. على أن الأمر يبدو أوسع من هذا، فقد كان في بلاد المسلمين نقود فارسية ونقود حميرية قديمة، وغيرها، وقد حاول الخلفاء من قبله ضرب النقود، بل يرجع إلى عمر بن الخطاب أنه ضرب الدراهم، لكنه استبقى عليها العبارات الفارسية، وأضاف بعض العبارات العربية فيها كقول «جائز»، واستمر ضرب النقود في عهد عثمان ومعاوية وابن الزبير، فكان من الطبيعي أن يستأنف عبد الملك عمله، وهو ما فعل. على أن عبد الملك يمتاز بأنه وضع لذلك مخططاً واضحاً، فليست القضية قضية إنشاء مصنع للنقود، ونقل السكة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية فحسب، بل يدخل في هذا الأمر وزن النقود وشكلها[2].

وقد تحدث المؤرخون عن أسباب دينية وسياسية واقتصادية قد لعبت دوراً أساسياً في بناء موقف الخليفة، تتلخص هذه الأسباب على الشكل التالي:

1 - كان الخليفة حريصاً على صبغ الدولة الأموية بصبغة إسلامية، ولذا فإن الإصلاح النقدي يندرج ضمن خطة شاملة لتعريب مؤسسات الدولة[3].

2 - حرص الخليفة على إنهاء التبعية الاقتصادية للدولة البيزنطية التي كانت تسيطر دنانيرها الذهبية على الجانب النقدي من اقتصاديات الدولة[4].

3 - توقف حجم السيولة النقدية للدولة الأموية على ما يرد عليها من الدولة البيزنطية، مما يعرضها لأزمات اقتصادية حادة، خاصة في حالات انقطاع هذه السيولة بسبب ممارسة ضغوط اقتصادية، أو نشوب معارك حربية أو نحوها.

4 - سيطرت الدولة على مصادر عرض النقود، وضمان تخليصها من الغش وكسب ثقة الناس في النقود المتداولة.

5 - حاجة الدولة الفعلية إلى عملة داخلية موحدة ومنضبطة حتى تستوفي بها حقوقها لدى الأفراد، وتسهل لها القيام بوظائفها الاقتصادية[5].

6 - إن إصدار النقود يعبر عن السيادة الكاملة للدولة الإسلامية ويحررها من النفوذ الأجنبي[6]، فقد أراد عبد الملك بن مروان أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادي مستقل عن بيزنطة وعدم الارتباط بنقدها، كما أن إصدار أول دينار إسلامي يرتبط بحالة الصراع مع البيزنطيين حيث استطاع الخليفة أن يوجه ضربة اقتصادية موجعة للدولة البيزنطية.

---

(1) حياة الحيوان للدميري (1/ 91 - 94).
(2) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 234.
(3) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 320.
(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 145.
(5) المصدر نفسه.
(6) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 321.

7 - يعتبر سك النقود الإسلامية وتوحيدها في الدولة اتجاهاً نحو الدولة المركزية وضبط جهازها المالي[1].

8 - ومن المعلوم الأكثر أهمية التي جعلت الخليفة يقدم على إصدار النقود الإسلامية، توفر كميات كبيرة من الذهب والفضة لدى المسلمين في البلاد المفتوحة، فاستند على قاعدة هذا المخزون الكبير من المعادن في إصدار النقد الإسلامي الجديد[2].

أهم خصائص النقود الإسلامية في عهد عبد الملك:

1 - أنه ألغى العبارات والإشارات التي تشير إلى العقيدة المسيحية المحرفة واستبدلها بعبارات تدل على عقيدة التوحيد الإسلامية.

2 - إنها موافقة في أوزانها النسبية لنصاب زكاة النقدين ومقدارها.

3 - أنه حدد وزن الدينار باثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة[3]، وجعل الدرهم خمسة عشر قيراطاً أو ستة دوانق[4].

4 - أنه حدد بناء على الوزن السابق سعر الصرف بين الدرهم والدينار، فكانت كل عشرة دراهم تساوي سبعة دنانير[5].

5 - تحددت تواريخ إصدار النقود الأموية بالتاريخ الهجري المتسلسل، أي وفق المتعارف عليه، بينما افتقرت النقود الساسانية والبيزنطية إلى التواريخ التقويمية، إذ اعتمدت تواريخها على بداية حكم كل ملك[6].

محاربة تزييف العملة:

تشدد عبد الملك وخلفاءه من بعده وولاتهم في تعقب أية محاولة لغش النقود وتزييفها ومعاقبة من يثبت عليه ذلك، فقد روي أنه أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده، ثم ترك ذلك وعاقبه، فاستحسن ذلك شيوخ المدينة[7].

سابعاً: العمارة والبناء في عهد عبد الملك:

اقتضت أهداف دولة عبد الملك بإنشاء مدينة واسط، وتونس.

1 - بناء واسط:

اختطها الحجّاج بن يوسف الثقفي في أرض كسكر[8]، وهي تتوسط عدة مدن، فهي تبعد

(1) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 322.
(2) المصدر نفسه، ص: 322.
(3) التطور الاقتصادي في العهد الأموي، ص: 146.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه.
(7) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 441.
(8) تجديد الدولة الأموية، ص: 195.

عن الكوفة أربعين فرسخاً، وكذلك عن المدائن والأهواز والبصرة وهي إحدى مدن العراق الكبرى قبل بناء بغداد[1]، وقد بدأ الحجّاج في بنائها عام 83هـ وانتهى منها سنة 86هـ[2]، وكان شروعه في البناء بعد موافقة عبد الملك، وقد أنفق على بنائها خراج العراق كله لخمس سنوات[3]، كانت رؤية تخطيطها تتضح فيها الملامح الأساسية للتخطيط للمدينة الإسلامية، فاشتملت المدينة على المسجد - الجامع - ودار الإمارة في الوسط، وتضمينها الأسواق اللازمة لحياة مدينة مستقرة، وفيها كذلك الملامح الجديدة ما يعكس ملامح النظام الأموي الجديد، ولعبت واسط دوراً سياسياً مهماً، فكانت المناظر المتصلة بينها وبين قزوين وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً، فتجرد الخيل إليهم، فكانت قزوين ثغراً[4]، فمنها كانت تتحرك الجيوش، وفيها ضربت النقود[5]، وازدهرت واسط من الناحية الاقتصادية فكثرت فيها المحلات التجارية، وتقدمت فيها الزراعة، وكانت عاصمة العراق في عهد الحجّاج.

2 - بناء تونس:

اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغساني عام 82هـ، لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة عام 78هـ[6]، بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة[7]، وإنما سميت تونس في أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته، وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس، فلزمها هذا الاسم فسميت باسم تونس[8]، واختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال[9]، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحرياً ومركزاً للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب[10]، بخبراء في هذه الصناعة زوده بها والي مصر عبد العزيز بن مروان بناء على

(1) فتوح البلدان، ص: 407، تجديد الدولة الأموية، ص: 195.
(2) فتوح البلدان، ص: 407، تجديد الدولة الأموية، ص: 195.
(3) تاريخ واسط، بحشل، ص: 38، 39، تجديد الدولة الأموية، ص: 197.
(4) معجم البلدان (5/ 350).
(5) المصدر نفسه (5/ 350).
(6) رياض النفوس للمالكي نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص: 200.
(7) معجم البلدان (2/ 601).
(8) الروض المعطار، ص: 144 نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص: 200.
(9) تقويم البلدان نقلاً عن تجديد الدولة، ص: 200.
(10) دائرة المعارف الإسلامية (6/ 32).

توجيه الخليفة عبد الملك[1]، وقد بنيت مدينة تونس طبقاً لأهداف سياسية استراتيجية، وأهداف اقتصادية اجتماعية، تبناها الخليفة عبد الملك، **أما الأهداف السياسية** البعيدة المدى، فيتضح ذلك بوضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على الساحل الإفريقي، والسبيل الأمثل هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطول مهمته صد العدوان الرومي بادي الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدي إلى الغزو والفتح فيما بعد، وقد تمثل تطبيق هذه المرحلة من قبل الخليفة عبد الملك فقام بالإيعاز لشقيقه والي مصر: عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفي قبطي من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام، **وأما الهدف الثاني:** فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية بإيجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأقام في المدينة المسجد الجامع ودار الإمارة وثكنات للجند للمرابطة وأخذ يقوم بتدوين الدواوين[2]، تنظيم الخراج والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامي[3]، وسارت المدينة لتكون معسكراً حربياً في البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات وأخيراً مركزاً حضارياً ومركز إشعاع فكري وعلمي وثقافي[4]. وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان إقدام الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة[5].

3 - بناء مسجد قبة الصخرة:

بنى هذا المسجد الخليفة عبد الملك بن مروان وسماه الأوربيون خطأ مسجد عمر، وقد رصد الخليفة لإعماره أموالاً طائلة[6]، قال ابن كثير: ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغاً ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة فجاءت في أحسن البناء، وفرشاها بالرخام الملون وحفاها بأنواع الستور، وأقاما لها سدنة وخداماً بأنواع الطيب والمسك والعنبر وماء الورد والزعفران، يعملون منه غالية ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعلا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئاً كثيراً، وفرشاها بأنواع البسط الملونة، وكانوا إذا أطلقوا البخور شمَّ من مسافة بعيدة، وقد عملوا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئاً كثيراً

(1) تجديد الدولة الأموية، ص: 200.
(2) البيان المغرب (1/ 38).
(3) المصدر نفسه (1/ 38).
(4) تجديد الدولة الأموية، ص: 203.
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه، ص: 206.

مما في الآخرة، فصورا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله ﷺ ووادي جهنم وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا... وبالجملة فإن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظراً، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة، ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه، فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال، فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك، فكتب إليهما قد وهبته لكما، فكتبا إليه إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نسائنا، فكتب إليهما: إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث[1].

وهناك عدة أسئلة تطرح نفسها: ما سبب بناء هذا المسجد وبهذا الإتقان والإبداع؟ ولماذا تزامن مع حركة ابن الزبير في الحجاز؟، إن أول المؤرخين الذين حاولوا إيجاد التسويغ لبناء مسجد قبة الصخرة المشرفة هو اليعقوبي (ت 284) وقد ربط ذلك بالحكم والخلافة حينئذ، وأوجد صيغة مشتركة في التعامل بين السلطة الأموية والمجتمع، لأن معظم العالم الإسلامي كان قد بايع عبد الله بن الزبير بالخلافة (64 - 73هـ) ما عدا إقليم الأردن[2]، فقد قال في كتابه: ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك لأن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فرض علينا، فقال: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي ومسجد بيت المقدس**». وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمه لما صعد إلى السماء[3]. واليعقوبي راوي الأثر السابق مؤرخ شيعي إمامي كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية حتى لقب بالكاتب العباسي، وقد عرض اليعقوبي تاريخ الدولة الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمامية، فهو لا يعترف بالخلافة إلا لعلي بن أبي طالب وأبنائه حسب تسلسل الأئمة عند الشيعة، ويسمي علي بالوصي، وعندما أرخ لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يضف إليهم لقب الخلافة إنما تولى الأمر فلان، ثم لم يترك واحداً منهم دون أن يطعن فيه، وكذلك كبار الصحابة، وقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها أخباراً سيئة وكذلك عن خالد بن الوليد[4]، وعمرو بن العاص[5]، ومعاوية بن أبي سفيان[6]، وعرض خبر السقيفة خبراً مشيناً[7]، ادعى فيه أنه قد

(1) البداية والنهاية (12/ 40، 41).
(2) تجديد الدولة الأموية، ص: 212.
(3) تاريخ اليعقوبي (2/ 361).
(4) المصدر نفسه (2/ 131).
(5) المصدر نفسه (2/ 222).
(6) المصدر نفسه (2/ 232، 238).
(7) المصدر نفسه (2/ 123، 126).

حصلت مؤامرة على سلب الخلافة من علي بن أبي طالب الذي هو الوصي في نظره، وطريقته في سياق الاتهامات - الباطلة - هي طريقة قومه من أهل التشيع وهي إما اختلاق الخبر بالكلية[1]، أو التزيد في الخبر[2]، والإضافة عليه أو عرضه في غير صياغه ومحله حتى يتحرف معناه، ومن الملاحظ أنه عندما ذكر الخلفاء الأمويين وصفهم بالملوك، وعندما ذكر خلفاء بني العباس وصفهم بالخلفاء، كما وصف دولتهم في كتابه «البلدان» باسم الدولة المباركة[3]، مما يعكس نفاقه وتستره وراء شعار التقية، وهذا الكتاب يمثل الانحراف والتشويه الحاصل في كتابة التاريخ الإسلامي، وهو مرجع لكثير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا في التاريخ الإسلامي وسيرة رجاله، مع أنه لا قيمة له من الناحية العلمية إذ يغلب على القسم الأول القصص والأساطير والخرافات، والقسم الثاني كتب من زاوية نظر حزبية، كما أنه يفتقد من الناحية المنهجية لأبسط قواعد التوثيق العلمي[4].

هذا هو اليعقوبي الذي اعتمده المؤرخون المتأخرون في روايته قصة بناء مسجد قبة الصخرة أو مسجد بيت المقدس على حد تعبيره، وعلينا أن نتحفظ من رواية اليعقوبي الآنفة الذكر ونعتبرها خارجة عن الإطار المقبول لأنه لا يعقل رجل بمستوى عبد الملك في دهائه ومكره وعقله وفقهه يضع نفسه موضع شبهة الكفر، فيصد الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام[5]، هذا من ناحية العقل والمنطق، وأما من ناحية السند فقد بينا ولم نسمع أن أحداً من خصوم الأمويين أوردوا ذلك في مطاعنهم على عبد الملك - سوى الشيعة -. كما أن الإمام الزهري لم يلتق بعبد الملك إلا بعد مقتل ابن الزبير، فقد نقل الذهبي عن الليث بن سعد أنه قال: قدِم ابن شهاب على عبد الملك سنة اثنين وثمانين[6]. وقد نص على أن ابن الزبير قتل سنة 72هـ[7]، وبعد مقتله استوثقت الممالك لعبد الملك[8]، فليس هو في حاجة لمن يضع له أحاديث لصرف الناس عن الحج، والزهري لم يكن عند مقتل ابن الزبير ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتقبل منه حديثاً موضوعاً يلغي به فريضة الحج الثابتة بالقرآن والأحاديث الصحيحة وذلك لصغر سنه، فإنه قد ولد بعد الخمسين من الهجرة[9]، وصداقته بعبد الملك وتردده عليه لا يقدح في أمانته ودينه.

وأما حديث شد الرحال فهو صحيح رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من العلماء، قال عنه ابن تيمية: وهو حديث مستفيض، متلقى بالقبول، أجمع أهل

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 431.
(2) المصدر نفسه، ص: 431.
(3) كتاب البلدان لليعقوبي، ص: 432.
(4) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 432.
(5) تجديد الدولة الأموية، ص: 214.
(6) موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، ص: 136.
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 247).
(8) المصدر نفسه (4/ 247).
(9) السنة ومكانتها في التشريع، ص: 218.

العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق[1]، ولم ينفرد الزهري رحمه الله برواية هذا الحديث حتى يتهم بوضعه، والحديث ليس فيه فضل قبة الصخرة وليس فيه الدعوة إلى الحج إليها والطواف حولها بدلاً عن الكعبة كما يدعي بعض المزورين، وغاية ما فيه فضل الصلاة في بيت المقدس وزيارته[2]، وأما الصخرة فقد ذكر ابن القيم أن كل حديث فيها فهو كذب مفترى[3]، وقد قام الدكتور حارث بن سليمان الضاري بنسف هذه الشبهة في كتابه القيم «الإمام الزهري وأثره في السنة»[4] في ثلاثة عشر صفحة وأتى بحجج دامغة قوية لمن يبحث عن الحقيقة العلمية، وسيأتي الحديث عن الإمام الزهري في عهد هشام بن عبد الملك بإذن الله تعالى.

المبحث الخامس

النظام القضائي والشرطة

أولاً: القضاء:

كان القضاء على عهد عبد الملك استمراراً لما كان عليه زمن من سبقه من الخلفاء، فضلاً عن إسهاماته الرائدة بتنظيم جوانب متعددة منه، فهو أول من أفرد للمظالم[5] يوماً، كما أوجب أن تقرأ عهود القضاة، أي أوامر تعيينهم، في المسجد الجامع أولاً، ثم يتوجهون إلى دار الأمير حيث يُتلى أمامه عهد توليه القاضي[6]، وكان الخليفة عبد الملك يختار من القضاة من يتصف بالتقوى والنزاهة فقد ولى على القضاء بلال بن أبي الدرداء[7].

1 - أشهر قضاة عبد الملك:

وكان من أشهر قضاة عبد الملك: أبا أدريس الخولاني وذلك سنة 74هـ وكانت له المظالم أيضاً حتى أعفاه عبد الملك بطلب منه[8]، ثم ولى عامر الأشعري[9]، ثم عبد الله بن عامر اليحصبي[10]، وعبد الله بن قيس ثم سليمان المحاربي، ومعظم هؤلاء القضاة من الفقهاء ومن رواة الحديث[11].

2 - رزق القاضي:

ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة 72 هـ قال: ما فعل شريح العراقي؟ قيل: حي

(1) الفتاوى (27/ 5، 6).
(2) السنة ومكانتها في التشريع، ص: 219.
(3) المنار المنيف، ص: 87.
(4) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 457 - 470.
(5) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 188.
(6) الإسلام والحضارة الإسلامية، كرد علي، ص: 161.
(7) أخبار القضاة (3/ 202).
(8) المصدر نفسه (3/ 202)، الإصلاحات، ص: 189.
(9) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 189.
(10) أخبار القضاة (3/ 203).
(11) إدارة بلاد الشام، ص: 132، 133.

قال: عليَّ به. فجاءه فقال: ما منعك من القضاء؟ فقال: ما كنت أقضي بين اثنين في فتنة[1]. قال: وفقك الله عد إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذها بالفلوجة وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[2].

3 - مراقبة القضاة:

كان عبد الملك يراقب قضاته ويتابع أخبارهم، فقد أخبر أن زوجة قاضيه الحارث الأشعري، كلمت زوجها في رجل يقضي له بقضية، وأن الرجل أهدى إلى زوجة القاضي هدية، فقال عبد الملك:

إذا رشوة من باب بيت تقحمت ... لتسكن فيه والأمانة فيه
سعت هرباً منه وولت كأنها ... حليم تولى عن جوار سفيه[3]

4 - عدم التدخل في أحكامهم وأعمالهم:

فقد كان موقف عبد الملك من القضاء والقضاة مبني على الاحترام وعدم التدخل في عملهم وأحكامهم[4].

5 - احترامه لقضاء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

أرسل أبان بن عثمان عامل عبد الملك على المدينة رسالة يسأله عن موقفه من أقضية وأحكام عبد الله بن الزبير، قائلاً له: إن عبد الله بن الزبير قضى بين الناس بأقضية، فما يرى أمير المؤمنين. أمضيها أم أردها؟ فكتب عبد الملك إلى أبان بن عثمان: إنا والله ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ما تناول من الأمر، فإذا أتاك كتابي هذا، فأنفذ أقضيته، فإن ترداد الأقضية عندنا يتعسر[5]، وهذه الرسالة تبين لنا جانباً مهماً من سياسة عبد الملك الحازمة، وحكمته في عدم التدخل في المؤسسة القضائية، إذ سد باباً على الحكام والولاة كاد فتحه أن يعرض أحكام القضاة إلى النقص المستمر[6].

6 - تحديد مهور النساء:

قام عبد الملك بتحديد المهور وجعلها (400) أربعمائة دينار، حداً أعلى، وهو أول من

---

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 211).
(2) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ (2/ 211).
(3) أخبار وكيع (1/ 56) الإصلاحات المالية، ص: 190.
(4) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 191.
(5) أخبار القضاة (1/ 130).
(6) الإصلاحات المالية، ص: 190.

فعل ذلك اقتداء بما فعله رسول الله ﷺ عندما خطب أم حبيبة بنت أبي سفيان[1]، وربما قام عبد الملك بذلك منعاً للمغالات في المهور، وتشجيعاً للزواج والإنجاب[2].

7 - ديوان المظالم:

كان الخليفة عبد الملك أول من أفرد يوماً للنظر في المظالم، حيث جلس في يوم محدد يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر فيها، فكان إذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه[3] أبي إدريس الخولاني فنفذ فيه أحكامه، وقد قام للجلوس بنفسه حتى يرتدع الناس، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك الآمر[4]، وكان عبد الملك حين يجلس للمظالم يستعد لها، فكان يلبس جبة ورداء[5]، كما ويقام على رأسه بالسيوف[6]، ويأمر شخصاً من هؤلاء القائمين على رأسه لإنشاد شعر لسعيد بن عُريض وهو:

إنا إذا ما دواعي الهوى ... وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بألبابهم ... نقضي بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا ... نلفظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا ... فنخمل الدهر مع الخامل[7]

ثم يجتهد عبد الملك في الحق بين الخصمين[8]. وهذا يعني أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوساً منظماً ومتكاملاً، ولا بد أن جلسات الخليفة هذه كان يحضرها كتاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها، كما أن تحديد الخليفة عبد الملك يوماً معيناً من كل أسبوع للنظر في المظالم، وتعيين قاضٍ لذلك وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف وهم من الحماة والأعوان، وارتداء الخليفة ملابس معينة، وانعقاد هذه الجلسات في مكان محدد، كل هذا يعني وجود الأسس لديوان مستقل، لكل ذلك يمكننا أن نقول بأن الخليفة عبد الملك ربما كان أول من أسس ديوان النظر في المظالم في الدولة[9].

ثانياً: الشرطة:

ومن الأجهزة المهمة التي كان لها أثر فاعل في إدارة بلاد الشام، جهاز الشرطة، وعلى رأسه صاحب الشرطة، ولابد أن الخليفة عبد الملك كان لا يختار لهذا المنصب إلا من

(1) الطبقات (8/ 99) الإصلاحات المالية، ص: 190.
(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 190.
(3) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص: 151.
(4) نهاية الأرب (6/ 269).
(5) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص: 152
(6) الإسلام والحضارة العربية، كرد علي، ص: 167.
(7) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص: 152.
(8) البداية والنهاية (12/ 385).
(9) الإصلاحات المالية، ص: 153.

توفرت فيه شروط صعبة التوفر[1]، وعين الخليفة عبد الملك بن مروان على شرطته: عبد الله بن هاني الأودي[2]، ثم استبدل به يزيد بن كبشة السكسكي ثم عزل الكثير من هذا المنصب وآخرهم في عهد عبد الملك: كعب بن حامد العبسي[3]، ولم تكن مهمة الشرطة في عهد عبد الملك هي الجناة واللصوص فحسب، بل مارست الشرطة عملاً مهماً، ألا وهو عملية تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية، فقد قلد الخليفة الحجّاج بن يوسف الثقفي هذه المهمة، فنجح فيها في عدة مناسبات وتمكن من ضبط جيش الخليفة وتأدية مهمته على أحسن وجه[4]، وكانت الشرطة موجودة في كافة أقاليم الدولة وتابعة لولاتها.

واتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان حرساً خاصاً به[5]، ويرأس هؤلاء الحرس رئيس، يعين ويعزل من الخليفة، وهو المسئول عن أفراد حرسه أمام الخليفة. ويبدو أن أعدادهم لم تكن قليلة، وكانت مهمة الحرس الأساسية هي حماية الخليفة، والمحافظة على سلامته، في حله وترحاله، وتنفيذ أوامره، ومن الجدير بالذكر أن جميع رؤساء حرس عبد الملك كانوا من الموالي وبخاصة من موالي الخليفة نفسه، ويبدو أن ذلك راجع إلى طبيعة أعمال هؤلاء المرتبطة دوماً بالخليفة، والتي تستوجب أن يكونوا موضع ثقة الخليفة للاطمئنان على سلامته وكان الخليفة ينتقل في مدن بلاد الشام، ونظم إقامته على هذا الأساس، فلم يكن يقيم بدمشق طوال العام، بل كان يشتو بالصَنبرة من الأردن، وإذا انتهى الشتاء نزل الجابية، وفرّق الأرزاق على أصحابه، فإذا مضت أيام من آذار دخل دمشق، حتى إذا اشتد الحر أتى بعلبك فقام بها حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع إلى دمشق، فإذا اشتد البرد خرج إلى الصنبرة[6]، وهذه التنقلات كانت تخضع لنظام حراسة مشدد، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب الشرطة في العصر الأموي، للدكتور أرسن موسى رشيد.

المبحث السادس

العلماء والشعراء في عهد عبد الملك

أولاً: العلماء:

اختلف موقف العلماء من عبد الملك، فهناك من خرج عليه، كعبد الرحمن بن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة كالحسن البصري وغيره، وهناك من كان قريباً منه ناصحاً له كقبيصة بن أبي ذؤيب، وقد اخترت مجموعة من العلماء لمن كانت لهم قربة

(1) عيون الأخبار (1/ 16).
(2) الإصلاحات المالية، ص: 191.
(3) المصدر نفسه، ص: 192.
(4) المصدر نفسه، ص: 192.
(5) المصدر نفسه، ص: 193.
(6) الإصلاحات المالية، ص: 194.

ومنزلة من عبد الملك، أو نصحوه أو ذكّروه ولم يكن عبد الملك بعيداً عن أجواء العلماء وطلاب العلم، فقد كان في المدينة في مقتل شبابه مشمراً في طلب العلم وعرف عنه أنه كان يلزم المسجد ولا يكاد يبرحه حتى سمي حمامة المسجد لعبادته، وطول انقطاعه للدراسة مقبلاً على طلب العلم مجلاً لشيوخه، ولما كان متوقد الذكاء، شديد الفطنة، قوي الذاكرة، فقد وعى كل ما سمع منهم، وأتقنه لمجالسته لهم[1]، وهذا أكسبه قدرة بحيث صار حجة في المعارف الدينية كقراءة القرآن التي كان يطيل في تلاوتها بالمدينة[2]، كما كان يحضر دراسته بدمشق[3]، وعرف بروايته للحديث وإن كان مقلاً[4]، على الرغم أنه كان ثقة فيما رواه[5]، وروايته مثبتة في الصحيحين البخاري ومسلم[6]، وكان فقيهاً من الفقهاء، ومن أهل العلم بالمغازي والسير[7] وأخبارها، وله علم واسع بأحاديث العرب وآثارهم في الجاهلية والإسلام، كثير المحاورة لرواة وسادة القبائل ونسابه، له معرفة دقيقة بأنساب العرب وبخاصة أنساب قريش[8] ولذلك كان عارفاً بنفسية العلماء قادراً على التعامل معهم، ومن أشهر العلماء الذين احتك بهم أو كانت له مواقف وعظ أو تذكيراً له هم:

1 - قبيصة بن ذؤيب:

نشأ قبيصة في المدينة وكان في عداد علماءها، ولكنه انتقل إلى الشام بجانب عبد الملك وأصبح من خاصته واختاره عبد الملك لعلاقته القديمة به في المدينة، ولما يتمتع به قبيصة من روح مرنة تراعي الأحوال، وتقدر المواقف، وتوازن بين المصالح، وصاحب هذه الروح هو القادر على الصبر والقرب من الخلفاء والسلاطين وهو من يرغب الخلفاء في تقريبه عادة، ومن المواقف التي ظهرت فيها هذه الروح عند قبيصة ما ذكره ابن سعد في طبقاته، حيث ذكر أن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله ﷺ دخل على عبد الملك وقربه فقال جابر: يا أمير المؤمنين إن المدينة حيث ترى، وهي طيبة سماها النبي عليه الصلاة والسلام، فأهلها محصورون، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم ويعرف حقهم فعل، قال: فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه، وجعل جابر يلح عليه حتى أوماً قبيصة إلى ابنه - وهو قائده وكان

(1) أنساب الأشراف نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص: 290.
(2) تهذيب التهذيب (6/ 422) شذرات الذهب (1/ 97).
(3) البداية والنهاية نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص: 290.
(4) الطبقات (5/ 226) تهذيب التهذيب (6/ 422).
(5) تهذيب التهذيب (6/ 423).
(6) المصدر نفسه (6/ 423).
(7) تجديد الدولة الأموية، ص: 291.
(8) المصدر نفسه، ص: 291.

جابر قد ذهب بصره - أن أسكته، قال: فجعل ابنه يسكته، قال جابر: ويحك؟ ما تصنع بي؟ قال: اسكت، فسكت جابر، فلما خرج أخذ قبيصة بيده فقال: يا أبا عبد الله إن هؤلاء القوم صاروا ملوكاً. فقال جابر: أبلى الله بلاءً حسناً فإنه لا عذر لك وصاحبك يسمع منك. قال: يسمع ولا يسمع وما وافقه سمع، وقد أمر لك أمير المؤمنين بخمسة آلف درهم، فاستعن بها على زمانك، فقبضها جابر[1]. فمن هذا الموقف يتضح كيف أدرك قبيصة عدم رضا الخليفة عن فتح هذا الموضوع معه من قبل جابر، وكيف أنهى الموضوع حتى لا يتطور إلى ما لا تحمد عقباه للطرفين، فأشار على ابن جابر بإيقاف والده عن الكلام ثم يطيب خاطر جابر بأخذه بيده، والاعتذار إليه بألا يستغرب هذا التصرف من عبد الملك، فلا يتعامل معه على أنه عبد الملك العالم، وإنما على أنه عبد الملك الذي صار ملكاً ينظر إلى الأمور من نافذة الملك ومصالحه، ثم هو يعتذر لنفسه عندما وجه جابر اللوم له بأنه ليس له عذر في عدم المطالبة بحقوق أهل المدينة ما دام له هذه المكانة عند عبد الملك، لأن الأمر ليس كما يتصور جابر وغيره بأنه قادر على تحقيق كل ما يريده من عبد الملك بل الواقع أنه يُسمع ولا يسمع، وفي هذا دليل على مراعاة قبيصة للأحوال والأشخاص[2].

أ - مكانته من عبد الملك: جمع قبيصة عدداً من المهام في عهد عبد الملك، وتعددت مسميات مهامه عند عبد الملك، فيذكر ابن سعد[3]، وابن عساكر، وابن عبد الهادي: إن قبيصة كان على الخاتم والبريد، وأما الذهبي، فقد ذكر هذه المهام السابقة وأضاف أخرى حيث ذكر أنه كان كاتباً لعبد الملك، ووصفه بأنه الوزير[4]. وكان يدخل على عبد الملك طروقاً[5]، وأن عبد الملك تقدم إلى حاجبه فقال: لا يحجب قبيصة أي ساعة جاء من الليل أو نهار إذا كنت خالياً أو كان عندي رجل واحد، أو كنت عند النساء أدخل المجلس ثم أعلمت مكانه. وكانت تأتيه الأخبار قبل عبد الملك فيقرأ الكتب قبله ثم يأتي بها منشورة إلى عبد الملك فيقرأها إعظاماً لقبيصة[6]، فقبيصة بهذا كان وزيراً لعبد الملك ومستشاراً له وساعده الأيمن في إدارة الدولة وتصريف شئونها، وكان ملازماً له في سفره وإقامته[7].

ب - موقف قبيصة من محاولة عبد الملك خلع أخيه عبد العزيز: كان مروان بن الحكم قد عقد ولاية العهد لابنيه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز[8]، وبعد وفاة مروان تمت البيعة بالخلافة لعبد الملك بولاية العهد لأخيه عبد العزيز بن مروان من قبل المؤيدين لبني أمية، ثم

(1) الطبقات (5/ 231).
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 124.
(3) الطبقات الكبرى (5/ 234).
(4) المصدر نفسه (5/ 234).
(5) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 125.
(6) الطبقات الكبرى (5/ 234).
(7) المصدر نفسه (5/ 230).
(8) تاريخ خليفة، ص: 261.

تأكدت تلك البيعة من الأمة بعد مقتل ابن الزبير ونهاية سلطانه، ولكن عبد الملك بعدما استقرت له الأمور، وتذوق حلاوة الملك في دنياه ورغب في استمرار الذكر له بعد الوفاة لاسيما وقد رأى أن كل من ابنيه الوليد وسليمان قد بلغ من الرشد مبلغه، وتحركت فيه عاطفة الأبوة تجاههما، وأحب أن يصرف ولاية العهد من بعده لهما دون أخيه عبد العزيز، وكان قد عزم على ذلك إلا أن قبيصة بن ذؤيب نهاه عن ذلك، فقد أورد ابن سعد هذا الخبر: قالوا: كان عبد الملك بن مروان قد همّ أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان ويعقد لابنيه الوليد وسليمان بعده بالخلافة، فنهاه قبيصة بن ذؤيب وقال: لا تفعل هذا فإنك تبعث عليك صوتاً نعار[1]، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكف عبد الملك عن ذلك ونفسه تنازعه أن يخلعه فدخل عليه ليلة روح بن زنباع الجذامي وكان يبيت عند عبد الملك، وكان أحلى الناس كلاماً عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطحت فيه عنزان، قال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟ قال: أي والله وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، فقال: نصبح إن شاء الله، فبينما هو على ذلك، وقد نام عبد الملك بن مروان وروح بن زنباع إلى جنبه إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب.. فقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك. فقال: فهل توفي؟ قال: نعم. فاسترجع عبد الملك بن مروان ثم أقبل على روح فقال: : أبا زرعة كفانا الله ما كنا نريد وما أجمعنا عليه[2].

ومن خلال هذا الموقف لقبيصة يمكن أن نستشف منهجه في التعامل مع عبد الملك كمشير ووزير، ويتمثل ذلك المنهج في صدقه في النصيحة ومراعاة المصلحة العامة للأمة والدولة، فهو لم يجامل عبد الملك بموافقته له فيما يوده ويهواه، بل دفعه إخلاصه لله وتقديره لمصلحة الأمة بعامة والبيت الأموي بخاصة أن يقول رأيه بصراحة وإن كان يعلم أنه يخالف ما في نفس عبد الملك ويضاد رغباته وعواطفه تجاه بنيه[3].

ج - موقفه من محنة الإمام الجليل سعيد بن المسيب: بعد وفاة عبد العزيز بن مروان عقد عبد الملك البيعة من بعده لابنيه الوليد وسليمان، وبعث إلى البلدان لأخذ البيعة لهما، ففي المدينة دعا واليها هشام بن إسماعيل المخزومي الناس إلى البيعة فبايعوا إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: انظر، فضربه هشام وطاف به ثم سجنه وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل[4]. وكانت الرسائل تصل إلى قبيصة بن ذؤيب ويقرؤها قبل عبد الملك، فلما وصل كتاب هشام واطلع على ما فيه كان له موقف من تصرف هشام مع سعيد بن المسيب يصور لنا ابن سعد هذا الموقف: . . . دخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بن مروان بكتاب هشام بن

(1) النعار: العاصي والخرّاج السعّاء في الفتن.
(2) الطبقات الكبرى (5/ 233، 234).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 136.
(4) سير أعلام الذهبي (4/ 230)، الطبقات (5/ 126).

إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيداً وطاف به قال قبيصة: يا أمير المؤمنين يقتات عليك هشام بمثل هذا؟ يضرب ابن المسيب ويطوف به؟ والله لا يكون سعيد أبداً أمحل وألج[1] منه حين يضرب، سعيد لو لم يبايع ما كان يكون منه؟ ما سعيد مما يخاف فتقه ولا غوائله على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنة. وقال قبيصة: اكتب إليه يا أمير المؤمنين في ذلك. فقال عبد الملك: اكتب أنت إليه عني تخبره برأيي فيه ومخالفتي من ضرب هشام إياه. فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك. فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني[2]، وكتب إلى والي المدينة كتاباً باسم عبد الملك: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف[3]. ويتضح من هذا أثر قبيصة الكبير في صياغة موقف عبد الملك وقراره في مثل هذه القضايا المهمة والخطيرة، كما يظهر أثره الفعال في إطفاء الفتن وحسن معالجته لها معالجة تنم عن بعد نظره ومعرفته بعواقب الأمور منطق إرضاء الله أولاً ثم الحرص على مصلحة الأمة والدولة ثانية[4].

د - **محاولته إصلاح بطانة عبد الملك:** كانت له محاولات تستهدف إصلاح بطانة عبد الملك وذلك بتقريب العلماء له وجعلهم ضمن جلسائه ليكثر بذلك سوادهم عنده ويكون تأثيرهم أقوى وأنفع، ومن ذلك محاولته تقريب الإمام الزهري إلى عبد الملك فتشير بعض الروايات التي ذكرت صلة الزهري بعبد الملك أن الزهري خرج من المدينة لما اشتد به ضيق ذات اليد وساءت أحوال أهله وليس له مورد فرحل إلى الشام، وذكرت بعض الروايات أنه اتصل بقبيصة وجالسه مدة قبل اتصاله بعبد الملك[5]، وقد أكرم قبيصة الزهري وقال له: ائتني في المنزل فلحق به الزهري فلما بلغ منزله كساه ومنحه بغلة ومائة دينار وغلاماً[6]، وعمل على تعريف عبد الملك بمكانة الزهري العلمية حتى أصبح من أصحابه وفرض له العطاء وتوطدت العلاقة بين الزهري وعبد الملك، وتكرر الدخول على عبد الملك بانتظام شأنه شأن أصحابه وجلسائه، ولكن حرص الزهري على العودة إلى المدينة لمواصلة طلب العلم وتولي مؤونة أهله وذويه جعله يرحل وينقطع عن عبد الملك فكانت صلته هذه على يد قبيصة بداية اتصال الزهري بخلفاء بني أمية بعد عبد الملك[7]وقد قال ابن سعد في أثر قبيصة لتقريب الزهري لبني أمية بقوله: وهو الذي أدخل الزهري على عبد الملك بن مروان ففرض له ووصله وصار من أصحابه[8]. وكان هذا من قبيصة حرصاً على مصلحة الزهري، كما كان همه إصلاح بطانة عبد

---

(1) النَحل: المكر والكيد، وماحله مماحلة ومحالاً: قاومه حتى تبين أيهما أشد، واللجاجة: الخصومة.
(2) الطبقات (5/ 126، 127).
(3) المصدر نفسه (5/ 126) أثر العلماء، ص: 140.
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 141.
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 329).
(6) المصدر نفسه (5/ 329).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 143.
(8) الطبقات (7/ 447).

الملك وتكثير سواد أهل العلم والصلاح في بلاطه مما سيكونه له أثر في توجيه سياسة الدولة نحو الأصلح بالتأثير على عبد الملك من قبل جلسائه وبطانته[1].

وقال الذهبي عن قبيصة: الإمام الكبير، الفقيه، أبو سعيد الخزاعي، وعن الشعبي قال: كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة. وعن مكحول قال: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة. وقد توفي سنة 86 هـ وقيل: 87 هـ وقيل: سنة88 هـ[2].

2 - عطاء بن أبي رباح ونصيحته لعبد الملك:

دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير وحوله الأشراف وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بَصُر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين اتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل، ثم نهض، وقام فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها فما حاجتك؟ فقال: مالي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد[3]. وكان بنو أمية في عهدهم يأمرون منادياً يصيح في الحج: لا يُفتي الناس إلا عطاء بن رباح، فإن لم يكن عطاء، فعبد الله بن أبي نجيح[4]، وقد فاق عطاء أهل مكة في الفتوى[5]وكان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة[6]، وكان معاشه صلة الإخوان ونيل السلطان[7]، ومن أقوال عطاء: إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لابد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين كرام كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته[8]، وعن عطاء: إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأُنصتُ له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[9]. وعطاء هذا الذي كان مرجع الأمة في موسم الحج كان أسود أعرج، أفطس،

(1) أثر العلماء، ص: 143.
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 238، 282).
(3) المصدر نفسه (5/ 84، 85).
(4) المصدر نفسه (5/ 82).
(5) المصدر نفسه (5/ 82).
(6) المصدر نفسه (5/ 84).
(7) المصدر نفسه (5/ 84).
(8) المصدر نفسه (5/ 86).
(9) المصدر نفسه (5/ 86).

أعور ثم أعمى، من الموالي، فهذا الذي تجمعت فيه كل العاهات الجسدية جعلته الحضارة الإسلامية رأس الفتوى في أقدس بقعة عند المسلمين في مكة، فضلاً عن كونه من أشهر علماء الحجاز الذين يستقطبون طلبة العلم من مختلف أرجاء المعمورة[1].

3 - يزيد بن الأصم وإجابته لعبد الملك:

سأل عبد الملك يزيد بن الأصم عن معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83] فأجاب بكل صراحة بقوله: التجبر في الأرض، والأخذ بغير الحق - أي من العلو والفساد في الأرض - فنكس عبد الملك برأسه، وجعل ينكث في الأرض، وكان إطراق عبد الملك وتنكيسه لرأسه حياء من يزيد لإدراكه أنه المعني لذلك بالتوجيه[2].

ثانياً: عبد الملك والشعر والشعراء:

كان عبد الملك بن مروان راوياً للشعر ناقداً له، كثير الاستشهاد به في كثير من المناسبات يكثر من الأسئلة والمحاورة منه في مجلسه، فضلاً عن اهتمامه بمعانيه، كما كان يعلم خطورته في التأثير الإعلامي في كسب الأنصار والهجوم على خصومه، ولذلك اهتم بالشعراء اهتماماً كبيراً ووظفهم لمدحه ودولته وبني أمية ولم يبخل عليهم بالعطاء، ولذلك كان كبار شعراء عصره من الأمويين مثل الأخطل، والفرزدق، وجرير، وغيرهم، كما أنه عمل على كسب خصومه حتى أنهم مدحوه بعد أن هجموا عليه بقصائد قوية في سبه وذمه مثل: عبيد الله الرقيات، وإليك شيء من شعر شعراء الدولة الأموية:

1 - الأخطل:

هو غياث بن غوث التغلبي النصراني شاعر زمانه وقد قيل للفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: كفاك بي إذا افتخرت، وبجرير إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح[3]، وكان عبد الملك بن مروان يجزل عطاء الأخطل، ويفضله في الشعر على غيره[4]، فقد كان شاعر الدولة الرسمي الذي أكثر من مدح خلفائها، والدعاية لها، والترويج لسادتها نحو ربع قرن[5]، ومن مدحه في بني أمية:

تمت جدودهم والله فضلهم ... وجد قوم سواهم خامل نكد
وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ... بيت إذا عدت الأحساب والعدد[6]

(1) رعاية الفتات الخاصة، ص: 9.
(2) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 275.
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 589).
(4) المصدر نفسه (4/ 589).
(5) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 492.
(6) ديوان الأخطل، ص: 174.

ومن شعره المتميز في بني أمية قوله:

حشْدٌ على الحق عيَّافو الخنا أُنُفٌ ... إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
شُمْسُ العداوةِ حتى يُستَقاد لهُمْ ... وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَروا[1]

وكان كثير المديح لعبد الملك والتنويه بصلاح السياسة في عهده كقوله:

إلى إمام تغدينا فواضله ... أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر
والمستمر به أمر الجميع فما ... يغتره بعد توكيد له غرر
نفسي فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجز يوماً عارم ذكر[2]

وعرف الأخطل بأنه يعاود شعره بالتنقيح والصقل، حتى لقد قالوا إنه كان ينظم القصيدة تسعين بيتاً ثم يضرب عن ستين ويبقي ثلاثين، وهذا هو السبب في جودة تعبيره، وندرة سقطه وهو بهذا يشبه المنقحين القدماء، مثل زهير والحطيئة وأضرابهما مما سماهم الأصمعي عبيد الشعر[3]. ومن أحسن ما قال من الشعر قوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال[4]

2 - الفرزدق:

هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن مجاشع[5]، وكان ممن مدح بني أمية وقال في عبد الملك بن مروان:

فالأرض لله ولأهـا خليفته ... وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به ... كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة في غدر فأخطأهم ... منها صدور وفازوا بالعراقيب
والناس في فتنة عمياء قد تركت ... أشرافهم بين مقتول ومحروب
دعوْا ليستخلف الرحمن خيرهم ... والله يسمع دعوى كل مكروب
فأصبح الله ولّى الأمر خيرهم ... بعد اختلاف وصدع غير مشعوب
تراث عثمان كانوا الأولياء به ... سربال ملك عليهم غير مسلوب[6]

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 495).
(2) عارم ذكر : نكبة شديدة وأذى مهلك، أدب السياسة، ص: 500.
(3) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 501.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 590).
(5) الشعر والشعراء (1/ 471).
(6) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 149، الديوان (1/ 25).

وكان للفرزدق أخٌ شاعر وهو هميم وهو القائل:

لعمر أبيك فلا تكذبن لقد ذهب الخير إلا قليلا
وقد فتن الناس في دينهم وخلّى ابن عفان شراً طويلا[1]

3 - جرير:

هو جرير بن عطية بن الخطفي التميمي البصري مدح خلفاء بني أمية، وشعره مدون[2]، وقد مدح عبد الملك ووصفه بأنه ركن الدين، والحفيظ على أحكام الشرع، ولولاه ما اجتمع المسلمون في صلواتهم في المساجد في الجمع، ثم يصفه بأنه أمين الله، والمبارك الذي يهدي به الله عباده، ويقول إن أوامره ميمونة مطاعة وإن الله فضل بني أمية على غيرهم من أهل البدع، يريد الأحزاب المعادية لبني أمية[3]، حيث قال:

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ما قام للناس أحكام ولا جمع
أنت الأمين أمين الله لا سرف فيما وليت ولا هيابة ورع[4]
أنت المبارك يهدي الله شيعته إذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل امرئ على يمن أمرت به فينا مطاع ومهما قلت يستمع
يا آل مروان إن الله فضلكم فضلاً عظيماً على من دينه البدع[5]

ومدح عبد الملك بقصيدة جاء فيها:

سأشكر إن رددت علي ريشي وأنبتّ القوادم من جناحي
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فقال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت، ووهبه مائة ناقة، فسأله الرعاء، فوهبه ثمانية أعبد، ورأى صحاف ذهب بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين والمحلب[6]، وأشار إليها، فنحاها إليه بالقضيب وقال: خذها لأنفعتك[7]. وكان في جرير على هجائه للناس عفة ودين، وحسن خلق، ورقة طبع، اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشأوا في ملك بني أمية أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل وإنما اختلفوا في أيهم أشعر[8]. وإن لجرير في كل باب من الشعر أبياتاً سائرة، هي الغاية التي يضرب بها المثل:

---

(1) الشعر والشعراء (1/ 472).
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 591).
(3) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 147، 148.
(4) سرف: متجاوز الحد. ورع: جبان.
(5) ديوان جرير، ص: 355.
(6) المحلب: الإناء.
(7) شذرات الذهب (2/ 57).
(8) جواهر الأدب (2/ 151).

أ - فيقال إن أغزل شعر قالته العرب هو قوله:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيينا قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا

ب - أفخر بيت قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

جـ - أهجى بيت مع التصون عن الفحش قوله:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

د - أصدق بيت قوله:

إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل

هـ - أشد بيت تهكماً قوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع[1]

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثي به امرأته:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتّع نظرة في اللحد حيث تمكن الإحفار
ولّهْتِ قلبي إذ علتْني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكرُّ عليهم ونهار[2]
صلى الملائكة الذين تخيَّروا والطيّبون عليكِ والأبرار
فلقد أراكِ كسيت أحسن منظر ومع الجمال سكينة ووقار
كانت إذا هجر الحبيبُ فراشَها خُزِنَ الحديث وعَفَّتِ الأسرار[3]

وكان قد افتخر على الأخطل في قصيدة وبين أن عبد الملك ابن عمه ولو شاء ساق إليه قبيلة الأخطل حيث قال:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
هل تملكون من المشاعر مشعرا أو تشهدون مع الأذان أذينا؟
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا حُرزَ تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليَّ قطينا[4]

(1) جواهر الأدب (2/ 152).
(2) المصدر نفسه (2/ 152).
(3) الشعر والشعراء (1/ 491).
(4) القطين : العبيد والإماء في هذا الموضوع.

قال الذهبي عن جرير: كان عفيفاً منيباً، توفي 110هـ بعد الفرزدق بشهر[1].

4 - الراعي:

من كبار الشعراء، هو أبو جندل، عبيد بن حصين النُّميري، وإنما لقب بالراعي لكثرة ما يصف الإبل في شعره، وقد امتدح عبد الملك[2]، وانضم إلى الفرزدق على جرير فقال فيه جرير قصيدته المشهورة التي صارت وبالاً على بني نمير:

أقِلِيَ اللوم عاذل والعتابا ... وقولي إن أصبت لقد أصابا

وفيها يقول له:

فغض الطرف إنك من نُمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وأهم ما بقي للراعي لاميته التي مدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو له العريف أو الجابي، ويرجو التخفيف عن قومه، ويتبرأ من الخوارج النجدية والزبيريين ويعد نفسه بذلك مخلصاً للأمويين[3]، ويبدو الراعي كان أموياً لأجل قومه ورغبة في عبد الملك أن يرفع عن قومه ظلم الجباة، ومن شعر الراعي لعبد الملك:

إنّي حلفت على يمين برَّة ... لا أكذب اليوم الخليفة قيلا
ما إن أتيت نُجيدة بن عويمر ... أبغي الهدى فيزيدني تضليلا[4]

إلى أن قال في رواية أخرى:

أخليفة الرحمن إنا معشر ... حُنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عُربٌ نرى لله في أموالنا ... حق الزكاة منزلاً تنزيلا
إن السُّعاة عصوك يوم أمرتهم ... وأتوا دواهي لو علمت وغُولا[5]
أخذوا العريف فقطعوا حيزومه ... بالأصبحية قائماً مغلولا[6]
إن الذين أمرتهم أن يعدلوا ... لم يفعلوا مما أمرت فتيلا
فادفع مظالم عيَّلَت أبناءنا ... عنا وأنقِذْ شِلْونا المأكولا[7]

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 591).
(2) المصدر نفسه (4/ 598).
(3) تاريخ الشعر السياسي، ص: 371.
(4) طبقات فحول الشعراء (2/ 508).
(5) الغول: الهلكة والداهية.
(6) العريف: شيخ القبيلة، حيزومه: وسطه، الأصبحية: جمع أصبحي وهو الوط نسبة إلى ذي أصبح وهو ملك يمني.
(7) عيلت: أجاعت. شلو: عضو، أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 172.

هؤلاء من أشهر شعراء عهد عبد الملك، وكان يهتم بهم ويسمع لهم ويجزل لهم في العطاء وكسبهم في صفه، وأصبحوا من أبرز المدافعين عن الخليفة ودولته، وكان لا يتورع عن دفع الأموال للشعراء ما داموا يمدحون ويجلون خلفاء بني أمية.

obeikandl.com